القاهرة
محروسة بألف مئذنة

حازم عوض

الكتاب: القاهرة .. محروسة بألف مئذنة

الكاتب: حازم عوض

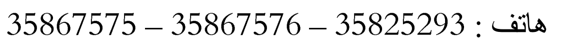
الطبعة: **2017**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية


هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

عوض ، حازم

القاهرة .. محروسة بألف مئذنة / حازم عوض

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى: **6 – 338– 446– 977– 978**

أ – العنوان رقم الإيداع : **2017/8955**

القاهرة
محروسة بألف مئذنة





مقدمة

أكبر عواصم العرب ومدن أفريقيا، قاطبة، ملتقى قوافـل التجـار وجيوش الغزاة والطامعين والطامحين في الماضي، والباحثين عن المجـد والشهرة وأضواء النجومية في سماء فنونها الزاهـرة، وإلى مئـات الألوف من القرويين النازحين من عمق الصعيد أو الـدلتا إلى آلاف اللاجئين من الظلم والاضطهاد والباحثين عن الأمان والسائحين من شتى بقاع الدنيا .

مدينة.. نعم ولكنها تفوق عشرات الدول على الخريطـة سـكاناً وحضارة وتراثا تحتضن الجبل من حافتها الشرقية ويضمها النيل من الغرب وترتفع مآذنها وتعلو قبابها التي تربو على الألـف في جميـع الأنحاء، يختلط فيها القديم بعبق أريجيه الماضي، لمسـاجد وكنـائس وأديرة ومتاحف وبيوت أثرية، بالجديد الناهض والبازغ إلى آفـاق التقدم والازدهار المادي والتقني، عمائر وأبراج وناطحات سـحاب تسطع على جامعات ومعاهد ومراكز أبحاث وفنادق وملاه صـاخبة تسهر حتى تلافيف الصباح، وحقا إنها القاهرة.. العامرة.

فكيف كانت القاهرة؟

بدايتها الأولى وقصة عمرانها وأفولها أو ازدهارها عبر تاريخ يمتد لأكثر من **1300** عاما مضت، وقد تضرب بجذورها لامتدادات تصل إلى سبعة آلاف عام في بعض من تخومها، أو في أجزاء احتوتهـــا وأعادت هي تشكيلها من جديد في عباءتها قبل أن يعلن الأثريون عن اكتشافاتهم الجديدة .

المؤلف

(1)

"الفسطاط" العاصمة العربية الأولى في التاريخ

كانت المنطقة التي شيدت فيها القـــاهرة ذات موقـــع استراتيجي من النواحي العسكرية والتجارية، وكانـــت عواصم مصر التاريخية تتبادل هذا الموقع أو أجزاء قريبة منه وتبني عواصمها المزدهرة لعدة آلاف من السنين..

فهناك على الضفة الغربية للنيل عام (**4225** ق.م) حيث قامت أول وحدة بين القطرين (الدلتا – الصعيد) على يد سكان الجزء الشرقي من الدلتا، الذين اختاروا لها موقعا يبعد أميالا قليلة شمال القـــاهرة، وذلك الموقع هو مدينة "أون" القديمة التي عرفها الإغريـــق باســـم (هليوبوليس)، ويعرفها سكان القاهرة الآن باسم (عين شمس).

في هذه المدينة ازدهرت علوم الفلك والطـــب والهندســـة، وأصبحت مركزاً مهما من مراكز الديانات القديمة كما نمت ثـــورة المعرفة على ضفاف النيل، فاستطاع المصريون التوصـــل إلى ربـــط قوانين الظواهر الطبيعية، وخلال عمليات الزراعة توصلوا إلى إنشاء

التقويم الشمسي الزراعي الذي يقسم السنة إلى فصولها الأربعة وأيامها، وضبط مواقيتها ومواعيد الزراعة بدقة متناهية.

وتأتي مدينة (منف) التي أنشأها مينا أمير مصر العليا.. عاصمة جديدة على مساحة 22 كيلو متراً جنوب القاهرة المعاصرة، وكانت معروفة باسم (الجدار الأبيض) حتى القرن السادس والعشرين قبل الميلاد إلى أن أطلق عليها المصريون اسم (من نفر) ، وهو نفس الاسم الذي حرفه الإغريق، فصار "ممفيس" واستمرت وحدة القطرين راسخة حتي يومنا هذا عبر خمسة آلاف عام.

وتزول العاصمة القديمة التي توجد مكانها الآن قرية (ميت رهينة).. وكان الإغريق يعرفونها باسم "مدينة الألف باب"، وبجانبها منطقة سقارة بهرمها المدرج ومدافنها المشهورة.. وظل موقع (منف) يسيطر طوال العصر الفرعوني، وما تلاه من عصور البطالسة والرومان على طريق القوافل القادمة من وديان الصحراء الشرقية، وأخذت العاصمة القديمة في الامتداد على الشاطيء الشرقي للنيل حتى وصلت إلى موقع مدينة (حلوان).

وهكذا تبادلت العواصم القديمة موقع تفرع النيل الذي يمثل القيمة الاستراتيجية للعاصمة – وتعتبر منطقة "حصن بابليون" المعروفة الآن باسم مصر القديمة من أكثر المناطق دلالة على ذلك،

فقد كانت مقرا للجيش الروماني فضلا عن الاحتفاظ بآثار عصر المسيحية الأولى في مصر قبل الفتح الإسلامي لتبدأ فاتحة جديدة من العواصم.

العاصمة الإسلامية الأولى

في عام **640** م دخل العرب مصر بقيادة عمرو بن العاص الذي اختار نفس الموقع الإستراتيجي والحضاري القائم عند تفرع النيل إلى دلتاه، حيث أسس العاصمة الاسلامية العربية الأولى (الفسطاط) في المكان الفسيح الذي يقع إلى الشمال من حصن بابليون، وهو موقع له أهميته من الناحية الحربية والعمرانية.. وأقام عمرو بن العاص مسجده العتيق في مدينة الفسطاط، ليعد أول مسجد مؤسس ليس في مصر فقط بل في أفريقيا كلها.

ويرى الباحث الفرنسي أو لوج فولكف في كتابه (القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة) الذي ترجمه للعربية أ. أحمد صليحة.. تفاصيل بناء مدينة الفسطاط بقوله: "بينما كان عمرو يتأهب للزحف على الإسكندرية وجد حمامة قد بنت عشها على قمة خيمته، وكان بيضها على وشك الفقس، فاستبشع أن يهدم عش طائر استجار به في شهر محرم، وأمر بترك الخيمة حتى عودته من الإسكندرية". ويقول ياقوت

المؤرخ صاحب تلك الرواية إن عمرو قد نصب حارسا على الخيمة حتى يمنع المارة من مضايقة الطير.

ومن كلمة فسطاط وتعني الخيمة اشتقت المدينة اسمها لكـــن هذا الاشتقاق قابل للنقاش – ذلك أن المؤرخين كتبوه في خمس صور (فوسطاط – فسطاط – فوساط – فيساط – فسطاط) وكانت لهم جميعا نفس صيغة الجمع فساطيط ، وربما كانت الفسطاط الصـــيغة العربية لكلمة فوساتن اليونانية (**Fossaton**) وتعني المعسكر، أيما كان المصدر فالاسم عاش والتصق بالمكان وباسم مصر، واستخدمت كلمة فسطاط مصر للدلالة على سكان المنطقة بوجه عام.

وحسبما ذكر المؤرخون كان جيش عمرو يضم إلى جانـــب المحاربين نساء وأطفالا وتجاراً، أي كان باختصار أمة متحركـــة، ولم يفقد هؤلاء المحاربون الذين اضـــطروا إلى الاســـتقرار حنينـــهم إلى الصحراء فقد تأثرت الفسطاط بطبيعة منشئيها الذين كانوا وســـطاً بين البداوة والتمدن، وبالرغم من أنها كانت معقل القوات العربية في مصر، فلم تتخذ شكل المدن المحصنة بل كانت أشبه بمعسكر مؤقت أو بمدينة في مرحلة التكوين أو بجنين لا شكل له ينمو تدريجياً حـــتي يتمخض في النهاية عن لؤلؤة الشرق مدينة القاهرة.

ويوضح المؤرخ الفرنسي، أن النمو بمصر كان بطيئا في تلك الفترة فقد أراد عمرو بن العاص أن تكون مدينته بسيطة حتى يجنب جنوده دعة ورفاهية الحياة التي هي عدوة للشجاعة والصلابة، وأراد أن يبعدهم عن امتهان المهن السلمية كالزراعة التي تضعف الشخصية لذلك كانت منازل أهل الفسطاط في البداية شديدة البساطة تتألف من حجرتين أو ثلاث، وكانت أقرب إلى الأكواخ منها إلى المنازل.

وحول "الديوان" مقر الادارة خطت لكل مجموعة عرقية لها قسما مستقلا من المدينة "خطة" كحارات مدينة القاهرة المستقلة، ومنها علي سبيل المثال "خطة الفارسيين" التي ذكرها المقريزي، وكانت مقرا للفرس الذين اعتنقوا الإسلام وشاركوا في فتح مصر، وضمت بعض (الخطط) أناساً من قبائل عربية مختلفة مثل "خطة أهل الراية" التي شيدت حول جامع عمرو ، و"خطة اللفيف" إلى الشمال منها، وخطة "أهل الظاهر" وقد خصصت لاستقبال القادمين الجدد الذين لا يستطيعون الإقامة في خطط قبائلهم، فضلا عن استقرار بعض القبائل في الجيزة تحت حماية إحدى القلاع.

وكانت كل خطة تضم حظائر للماشية وللحيوانات ويفصل بعضها عن بعض أرض فضاء قليلة للاستزراع أو تغطيها أكوام قمامة مما كان يعطي للسكان انطباعا بأنهم لا يزالون يحيون في الصحراء، وبالتدريج عمرت تلك الأراضي بالمهاجرين الجدد.

يقول المؤرخ العربي "زيدان" إن العرب اعتادوا النزول على أطراف المدن التي يفتحوها لكن الأمر اختلف في الفسطاط، فإلى الجنوب من بابليون امتدت بركة الحبش التي كانت موطنا للأوبئة والناموس، أما إلى الشمال الغربي في المنطقة التي كان يحصرها مرتفعان هما جبلا "يشكر" و"الرصد" وتوجد هضبة مقعرة الشكل، وبهدم بعض المباني الدينية وجدت المساحة اللازمة لبناء المدينة العربية التي امتدت من النيل غربا، حيث كان مجراه إلى الشرق قليلا من المجرى الحالي ولامست أطرافها المرتفعات الصحراوية الواقعة شرقاً.

وفي شتاء **641 – 642**م شيَّد عمرو مسجده في الموقع الذي كان قد نصب فيه رايته عندما كان يحاصر حصن بابليون، ولذا عرف الموقع بميدان الراية. كان هذا الموقع أصلا جبانة قديمة تقوم وسط مزارع للخضروات، وكان مملوكا لرجل يدعى عبد الرحمن بن قيسبة الذي وهبه للمسلمين دون مقابل بناء على طلب عمرو.

كان المسجد الأصلي شديد البساطة أشبه بمنزل عادي مستطيل الشكل طوله **28** متراً وعرضه **17** مترا، وسقفه واطئ من سعف النخيل ومحمول على دعائم، ولم يكن به منبر ولا مئذنة ولا أبراج بالزوايا، وكان مزودا بستة أبواب، وقد استخدم لأغراض شتى: كمحكمة وقاعة مجلس ومأوى، ويروى أن ثمانين من الصحابة "رضوان الله عليهم" حددوا اتجاه قبلته، وكان بها خطأ طفيف تم

إصلاحه عندما أعيد بناؤه. وقد اختط خيرة المحاربين منازلهم حـــول الجامع.

ويتابع المؤرخ الفرنسي: "سرعان ما ضاق المسجد بمجموع المصلين الذين اضطروا إلى الجلوس في صفوف بالفضاء الواقع خارج المسجد، وقد أمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بكسر المنبر الذي أقامه عمرو في مسجده، ووبخه على رغبته في أن يعلـــو بـــأي صورة على رؤوس المسلمين، وتمت الزيارة الأولى في مساحة الجامع في عهد مسلمة بن مخلد عام **673** م ، فقد أضاف "رواقاً" في الجانب الشمالي، وكسا أرضية الجامع بالحصير بدلا من الحصباء، وبنى أبراجا صغيرة في أطراف الجامع، وشيَّد عليها منائر تحمل اسمه، وقد زاد في عدد المؤذنين، وأمرهم بالأذان لصلاة الفجر بدلا مـــن اســـتخدام الناقوس الخشبي، وفي عام **696**م أعاد عبد العزيز بن مروان جـــزءاً من الجامع أو بالأحرى أعاد بناء الرواق الشمالي الذي كـــان قـــد أضيف من قبل. وفي عام **711** م كتب الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى واليه على مصر قرة بن شريك بأن يهدم الجامع ويعيد بناءه مـــن جديد. وفي تلك المرة بُني المحراب على هيئة تجويف غائر ، ثم جـــاء عبد الله بن طاهر في عام **827** م وزيـــدت مســـاحة الجـــامع إلى الضعف تقريبا.

وأخيرا وبعدما كان الجامع على وشك الاندثار، رممه مـــراد بك عام **1792** م ليتخذ الصورة التي هو عليها الآن. ولقد أتـــى على جامع عمرو بن العاص حين من الدهر كانت فيه جدرانه الملونة مزخرفة بماء الذهب، وقد أودع فيه **1290** مصحفا وأنار جنباتـــه **1800** مصباح.. وتحيط بقصة بناء الجامع قصص غريبـــة منـــها أن هناك عمودين في بيت الصلاة لا يمكـــن أن يمـــر مـــن بينـــهما إلا الصالحون.

نمت الفسطاط وازداد تنسيقها وقد صارت العاصمة الإدارية للإقليم وغطت في نهاية الأمر مساحة على شاطئ النيل طولها خمســـة كيلو مترات وعرضها كيلو متر واحد. فقد امتدت من بركة الحبش الواقعة إلى الجنوب من دير الطين حتى جبل يشكر الذي سيبنى عليه فيما بعد جامع ابن طولون.. وكانت المنطقة المحاذية للنيـــل تـــدعى "الحمراوات" ومعظم أهلها من المسيحيين واليهود السوريين الـــذين كانوا قد انضموا للمسلمين لأسباب سياسية، وقد انقسمت تلـــك المنطقة إلى ثلاثة أجزاء هي (الحمراء الدنيا)، و(الحمراء الوســـطى)، وأخيرا (الحمراء القصوى)، وقد ازدادت أهمية هذا الجزء الأخير عام **642** م عندما أعيد تطهير الخليج (وهو القناة التي كانـــت تـــربط البحر الأحمر والنيل) وذلك لإرسال المؤن من الحبوب إلى الجزيـــرة العربية.

لم يكن بالفسطاط منشآت ذات أغراض دفاعية عدا بناء واحد محاط بسياج من البوص بجانب منازل محصنة أقيمت بين الخطط كنوع من التحصين، وبهذا كانت المدينة آمنة من أي اعتداء، وفي حالة الهجوم عليها من اليسير على أهلها الفرار إلى الصحراء التي شكلت ملجأً آمنا.

كان لكل خطة مسجدها بالإضافة إلى جامع عمرو فضلا عن المصلى الذي شيِّد خارج المدينة، وكانت تؤدى فيه الصلاة الجامعة في بعض المناسبات الخاصة. أما عن المنازل فكان محظوراً عليها أن تجاوز طابقاً واحداً ارتفاعاً، لأن المسلمين كرهوا المنازل العالية التي يمكن منها اختراق حرمات الجيران. وبمرور الوقت شيدت الكثير من العمائر، ففي عام 733 م كانت هناك دار الصناعة (الترسانة) في "الروضة" وميناء "المقس" وأقيم على النيل جسراً بأمر الخليفة المأمون. وأقام الوالي عبد العزيز بن مروان منازل وأسواقا مسقوفة وحمامات. وعلى ضفاف النيل أقيمت مخازن عدة لاستقبال البضائع الواردة بطريق النهر في القرن الثامن الميلادي، وبنيت منشأة لأمير المؤمنين كانت مقرا للإدارة الحكومية، ثم شيدت في الفسطاط فوجد بعد ذلك بسنوات قليلة خزانة (بيت المال).

وفي عام 750 م عندما كانت الدولة الأموية تحتضر، فــر الخليفــة مروان الثاني إلى مصر ومر بالفسطاط فوجد فيهــا مخــازن عــامرة بالغلال والقطن والتبن.

وتحكي كتب التاريخ عن أن المنطقة المحصورة بين الفســطاط والمقطم كانت هناك جبانة تعرف باسم القرافة، وكــان بالفســطاط تمثالان أحدهما عرف باسم أبو الهول واندثر في القرن الرابع عشــر والثاني أطلق عليه أبو مرة وهو من أسماء الشيطان المعروفة، وكانــا يمثلان إناثا حيوانية وقد صنع أولهما من الديوريت، أما الثاني فكــان منحوتا من الجرانيت الوردي. وقيل إن "عمرو بن العاص" شيَّد حماما عاما صغيرا عرف لصغره الشديد بحمام "الفأر" كما كــان بالمدينــة حمامان آخران هما "حمام وردان" و"حمام بصرة بن ارتة" ولابد أنهمــا كانا شديدي القدم إذ يحملان اسمي اثنين من أصحاب عمرو، وهكذا أخذت المدينة تنمو تدريجيا.

(2)

في القرن العاشر ناطحات سحاب من 14 دورًا يسكنها المئات

كانت الفسطاط قد عرفت في عهد العباسيين ظاهرتـــان سلبيتان الأولى عندما قام الخليفة الأموي الهارب اليهـــا مروان الثاني بحرقها قبل أن يدخلها العباسيون، والثانيـــة عندما أنشأ العباسيون مدينة جديدة لهما هي "العسكر" إلا أن ذلك لم يكن عقبة أمام ما تحقق لمدينة الفســـطاط من الاتساع والنمو،

ففي عام **750** م بعد أن دخلت مصر القوات العباســـية لمطـــاردة الخليفة مروان الثاني، الذي كان قد أحرق الفسطاط، لم تقم هـــذه القوات بالفسطاط، لكنها شيَّدت لها مقراً يدعى "دار الإمـــارة " في منطقة "الحمراء القصوى" وحولها ظهر حي جديد ضـــم مســـجداً وثكنات للجند وأسواقاً ومنشآت مختلفة، وعرفت تلك المنطقة باسم "العسكر" وذلك عام **751** م، وفيها أقام **65** والياً عباسياً خـــلال **118** عاماً .

ولكن لم تمنع تلك الظاهرتان من أن تستعيد الفسطاط وبسرعة مكانتها ورونقها، وتضيف "العسكر" التي اتخذها الولاة العباسيون مقرا لهم إلى امتداداتها.

يقول الباحث الفرنسي "أولج فولكف": اتخذت الفسطاط تدريجيا شكل مثلث ذي ثلاثة بوابات "باب الصفا" شرقاً و"باب مصر" في الشمال و"باب القنطرة" بالجنوب، وكان النيل لها بمثابة وتر المثلث، واشتد التصاق المدينة بالنهر لأنه مكنها من احتكار التجارة وبالتالي الصناعة، فبفضله صارت مركزاً مهماً للتبادل التجاري ومركزاً للطرق التجارية التي وصلت إلى الجزيرة العربية والمغرب وسوريا والجزر اليونانية وأفريقيا السوداء.

وقد جاهدت المدينة على ألا تفقد ارتباطها بالنهر، فواصلت تقدمها في الاتجاه الشمالي الشرقي، أما المنطقة البعيدة المجاورة لجبل المقطم فقد تركت للموتى، حيث أقيمت فيها مقابر للأقباط والمسلمين، وقد عرفت جبانة المسلمين "بالقرافة الكبرى" وربطت بقلب الفسطاط عن طريق شارع جنائزي سمي "طريق الوداع"، وفي تلك المنطقة أقيمت أضرحة للسيدة نفيسة وللأئمة: الشافعي، الليثي، وسيدي عقبة، وبذا تشكلت مدينتان متجاورتان إحداهما من منازل والأخرى من مقابر. واصلتا الزحف جنبا إلى جنب على نحو متماثل.

في أوج ازدهار الحكم الفاطمي، أولى الرحالة الــذين زاروا مصر الفسطاط، التي دام ازدهارها قروناً عديدة وأدمجت فيها مدينة العسكر. وقد وصفها الرحالة بأنها مدينة إقليمية عــامرة بالســكان ومفعمة بالحيوية، وقدرها ابن حوقل والأصخري سنة **977** م بثلث مساحة بغداد، وفي خلال بضع سنوات صارت الفسطاط قلب الأمة الاسلامية، حيث اهتم كافور الأخشيدي بالعلوم والآداب، وشــيَّد مدرسة، كما شيَّد العديد من الجوامع إلى جانب جامع عمرو، وقد ظل الأخير على مكانته كمركز تدور حوله كل أنشــطة المدينــة. وكانت الأسواق مزدحمة بالناس والمصانع التي تنتج السكر والورق، وعلى النيل أقيم ميناء المقس، ودار لصناعة السفن. ويصف المؤرخ المقدسي دهشته لعظم عدد سكان الفسطاط عام **985** م، بقوله في يوم الجمعة كان يؤدي الصلاة عشرة آلاف رجل خلــف الإمــام، واحتكر سوق القناديل التجارة والمعاملات، وانتشرت في كل مكان منازل من أربعة وخمسة طوابق كان بعضها يتسع لمائتي نفس.

ويضيف: "إنها أبهى مدن الإسلام وأكثرها عمرانا، وفضــلا عن ذلك كان المرء يجد فيها كل الأشياء التي قد يحتاجها في حياتــه بأسعار زهيدة حيث كانت تتدفق عليها البضائع من أرجــاء العــالم باستمرار".

ويقول المؤرخ القلقشندي: كان الرخاء عاماً في الفسطاط في نهاية القرن العاشر الميلادي حتى إن الأغنياء لم يجدوا فقراء يــؤدون إليهم الزكاة فشكوا إلى الوزير كافور الذي أشــار علــيهم ببنــاء المساجد وتوريث أموالهم. ووصف الرحالة الفارسي "ناصر خسرو"، "سوق القناديل" بأنه أغنى أسواق الدنيا، ويشير بدهشــة فائقــة إلى ارتفاع منازل الفسطاط، فيذكر أن منها من كان ذا أربعــة عشــر طابقا، كما أن الحدائق كانت تغرس على أسطح المنازل، وقد عــدد خسرو صنوف البضائع الفاخرة والنادرة الــتي كانــت تبــاع في الفسطاط، وتحدث عن مصنوعاتها المحلية وقد امتدح هدوءها وأمنها وحسن سياسة حاكمها.

مقياس النيل عراقيا

ظلت الفسطاط لمدة طويلة أهم مدن العالم الإسلامي، وبعــد قــرن كامل من تشييد مقياس النيل الذي يقيس ارتفاع فيضان النيل، أعيد بناؤه في عام **861** م بأمر من الخليفة المأمون ثم الخليفة المتوكل الذي أوفد من العراق معمارياً مشهوراً هو محمد بن كثير الفرغاني، وقــد صحبه عالم رياضي يدعي محمد ينتصب الفلكي، ثم رممــه الخليفــة المستنصر بالله في القرن الحادي عشر الميلادي، ويتألف مقياس النيل من بئر مستطيل متصل بقاع النهر، ومن أعلى يفتح على فنار مربع،

وفي مركز البئر ينتصب عمود رخامي مثمن قسم إلى درجات أو أذرع تحدد ارتفاع الماء. ويمكن عن طريق سلم دائري منحوت في حوائط البئر أن تنزل حتى سطح الماء الذي يكسبه الظلام مظهر مرمر أسود سائلاً، وعلى الضفة المقابلة مثلث الجيزة وكانت مدينة صناعية صغيرة على أطرافها شيدت فيلات فاخرة وجهت بطريقة تسمح لها باستقبال نسيم النيل.

وهكذا صمدت الفسطاط تلك المدينة المزدحمة بالسكان والتي لعبت دوراً صناعياً وتجارياً مهما طويلا، بعد أن اتخذ الخلفاء والأرستقراطيون من القاهرة سكنا لهم، واستمرت فيها مصانع الحديد والنحاس والصابون والزجاج والورق والسكر والمنسوجات حتى القرن الثالث عشر الميلادي. وفي عام **1119** م صنعت فيها حلقة من النحاس المطروق مقسمة إلى درجات يبلغ قطرها بضعة أقدام وتزن بضعة أطنان، وقد استخدمت كحامل لآلة للرصد الفلكي.

وتشهد آثار الفسطاط وما عثر عليه في خزائنها من خزف قديم ومصنوعات زجاجية على الازدهار الذي عاشته، وكانت الضربة القاصمة لها حين بدأ الضعف يدب في النصف الثاني من مدة خلافة الخليفة المستنصر (**1035-1094**) حيث قضت المجاعة والفتن العسكرية على رخاء هذا العهد.

وكانت أكثر مناطقها تأثراً هي المنطقة الشـــمالية والقطـــائع (مدينة الطولونيين) ومدينة العسكر العتيقة، ولما زار الرحالة الفارسي ناصر خسرو الفسطاط في عهد الخليفة المستنصر، وجـــدها مدينـــة مهجورة تحولت إلى خرائب، وأعيد استخدام ما أمكن نقله منـــها في أبنية القاهرة في عصر بدر الجمالي، وتبع ذلك بناء حـــوائط حـــتى تحجب منظر الخرائب الكئيب عن نظر الخليفة إذا ما غادر القـــاهرة متوجها إلى الفسطاط ماراً بالشارع الأعظم.

وفي عصر الخليفة الآمر (**1101-1130**) أمـــر وزيـــره المـــأمون البطائحي كل من يملك عقاراً خرباً أن يصلحه أو يسكنه أو يبيعه أو يؤجره، وإلا فقد حق ملكيته. ولكن هذا الأمر أدي إلى ظهور أحياء جديدة جنوب القاهرة بين ميدان الرميلة وباب زويلة.

حرائق وخراب ومجاعات

أُهملت الفسطاط وظلت عارية من التحصينات، لتأتي النهاية في عصر الخليفة العاص في الوقت الذي كان جيش الصليبيين يزحف عليهـــا، وخشي الوزير شاور أن يتخذ الصليبيون الفسطاط قاعدة لهم، فأمر سكانها بالرحيل، فغادروها كلهم "كأنما خرجوا مـــن قبـــورهم إلى المحشر لا يعبأ والد بولده ولا يلتفت أخ إلى أخيه"، وفي القاهرة أوى

المهاجرون في المساجد والحمامات والشوراع، وبمجرد أن أخليت المدينة حمل إليها شاور في **22** نوفمبر **1168** م عشرين ألف قدرة نفط وعشرة آلاف مشعل، وأضرم فيها النار، تحولت المدينة إلى موقد ملتهب رهيب، واستمرت النار متأججة أربعة وخمسين يوما محيت فيها المدينة، التي قاومت النار كان إعلانا منها بأنها ترفض الاندثار دونما أن تترك أثراً مهما كانت سوء حالته.

ولمدة قرن من الزمان توالت على الفسطاط النوائب وأخذ أهلها يهجروها وأخيراً عجزت عن منافسة القاهرة بثرائها الذي لمع كفنار يرسل ضوءه عبر القمر

ويعلق المؤرخ الفرنسي "ولج فولكف" على ما حدث لمدينة ناضلت من أجل البقاء بقوله: أخذت القاهرة الفتية في التباعد عن الفسطاط الميتة وقد فصلتهما تلال من الركام، يخترقها طريق ترابي يبدأ من باب زويلة (جنوب القاهرة)، ويمتد إلى المنازل القليلة المحيطة بجامع عمرو، وهي المنطقة الوحيدة التي عمرت بعد الحريق. وقد أخذت المدينة تناضل للبقاء، فبالرغم من الأوبئة والمجاعات التي فتكت بسكانها مرات، إلا أنها استمرت تلعب دوراً مهما في اقتصاد البلاد، ولكن دون أن تصل أبدا إلى سالف مجدها الذي بهر ناصر خسرو المؤرخ الفارسي.

لقد تحولت بوابة المدينة والكثير من المنازل إلى خرائب، وصـــارت شوارعها ضيقة قذرة، أما جامعها الذي كان قد أصلحه صلاح الدين بعناية فائقة، فقد هُجر من جديد وأصبح طريقاً للمسير، ورغم هذا فعندما كان المرء يلتفت بنظره إلى النيل كان يرى عددا من الســـفن التجارية الراسية واستمر السكر والحرير يصنعان بهـــا، واســـتمرت أيضا مركزاً للتجارة والصناعة ومنها تنقل البضائع إلى القاهرة.

وعلى النقيض من القاهرة المدينة الحديثـــة الحربيـــة مثلـــت الفسطاط مدينة تجارية مشغولة بمصالحها المادية، وقد امتـــدح ابـــن سعيد وداعة أهلها فقال "لم أر قط في أي من البلاد أكثر من أهـــل الفسطاط مودة" ويصفهم بالرقة والتسامح كتجار أصلاء يحـــاولون مضاعفة معارفهم.

وتدريجيا أخذت القاهرة في اجتذاب التجارة إليهـــا علـــى حساب الفسطاط ففي العصور الوسطي لم تعد أسواقها تجذب انتباه الرحالة الذين اهتموا بوصف أسواق القاهرة التي أدهشتهم. ويختفي اسم المدينة في الظلام ولا يبقى منها سوى اسم مصر.

مصر القديمة

ويكاد يكون تاريخ الفسطاط مجهولا بدءًا من القرن السادس عشر الميلادي، بينما أخذت القاهرة في الازدهار وتعاظمت سطوتها حتى صارت الفسطاط تعرف في النهاية بمصر القديمة وقد سميت بالقديمة لأن فيها عاصمة مصر القديمة (الفسطاط)، ويرى الأوروبيون أن موقعها أفضل بكثير من موقع القاهرة لقربها من النيل، ولقد نالت الفسطاط اهتماماً كبيراً من الرحالة كما أوردت د. إلهام ذهني في كتابها (مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين) في القرن التاسع عشر، فلا تذكر الفسطاط إلا ويذكر معها عمرو بن العاص وتاريخ بناء المدينة ومعنى اسمها.

وتمثل مصر القديمة مزاراً مهما للرحالة، ففيها العديد من الكنائس خاصة كنيسة العذراء، وأبي سرجة، وبها أيضا دير للفتيات اليونانيات وغيرها من المزارات المسيحية، وفي عهد محمد علي أصبحت مصر القديمة سكناً للأثرياء وكبار الشخصيات الذين اهتموا بإقامة الحدائق الجميلة فيها واتسمت شوارعها بالهدوء والنظافة. وقد بلغ عدد سكان مصر القديمة أثناء حملة نابليون عشرة آلاف نسمة تقريباً من بينهم ستمائة مسيحي، وقد أشار علماء الحملة إلى أهمية مينائها في الملاحة النهرية إلى مصر العليا، وفي التاسع

عشر صارت منطقة نشطة، وبلغ عدد سكانها في إحصاء **1897** م واحداً وثلاثين ألف نسمة.

وقد امتدت مصر القديمة بحذاء شاطئ النيل ويلتحم طرفها الشمالي مع مدينة القاهرة، وقد غطت بقاياها أكوام من الأتربة تمتد حتى جبل المقطم وذلك في نهاية العصر الفاطمي.

وقبل رسوخ القاهرة كعاصمة أبدية لمصر كانت مدينة القطائع العاصمة المصرية الثالثة منذ الفتح الإسلامي فقد أسسها أحمد بن طولون في عصر الطولونيين عام **870** م في الجانب الشمالي من "العسكر"، وأقام في وسطها مسجداً وجامعاً يعد من أكبر مساجد العالم الإسلامي وأبهاها..

فما هي قصة صعود وهبوط تلك المدينة؟.. هذا ما سنعرفه في الحلقة التالية.

(3)

"القطائع" مدينة كاملة على جبل "يشكر" وقصر بديع في المقطم

قبل أن نصل إلى "القاهرة" نأتي إلى آخر أضلاع مثلث المدن التي سبقتها وهي "القطائع" التي بناها أحمد بن طولون واتخذها عاصمة له؛ فنحن نعرف أنه عندما دخلت القوات العباسية مصر غازية لمطاردة الخليفة مروان الثاني الذي أحرق الفسطاط، ولأن العباسيين لم يسكنوا الفسطاط،

فإنهم شيدوا لهم مقراً يسمى "الإمارة" وعرفت تلك المنطقة التي سكنوا بها باسم "العسكر" كان ذلك في عام **750** م ولم تكن (العسكر) عاصمة بديلة للفسطاط بل مركزا مجاورا في الشمال الشرقي لها، وأخيرا انتهت العسكر بأن ذابت في الفسطاط بعد أن فقدت اسمها.. ولكن الأمر كان مختلفاً لنا مع مدينة القطائع ومؤسسها "أحمد بن طولون"، فسرعان ما ضاقت دار الإمارة في مدينة العسكر بجموع وحاشية وجيش ابن طولون، ولم يكن هناك

قصر يكفي ابن طولون الذي كان يحتاج لمدينة كاملة شيدها على جبل (يشكر) في عام **870** م شرق الفسطاط.

وقبل سرد وقائع مدينة (القطائع) العاصمة الثالثة لمصر إبان الفتح الإسلامي.. نتوقف قليلاً عند مؤسسها أحمد بن طولون.

ولد ابن طولون في بغداد في عام **835** لأب من العبيد الأتراك، وتلقى تعليماً جيداً، فضلا عن دراسة العربية وحفظ القرآن، تعلم الفقه، وعندما عين حماه "بكباك" واليا على مصر أرسله إليها نائباً عنه، وبعد فترة من الزمن عينه الخليفة العباسي حاكما على مصر، ووصف أحد المؤرخين "أحمد بن طولون" بأنه أمير عادل كريم شجاع، تقي، وحاكم كفء صادق الفراسة، مترفع عن الدنايا رفض أن يسمم إناء الخمر للخليفة المنصور بعد عزله. وعندما أتى مصر رد عشرة آلاف دينار أرسلها إليه كهدية القائم على خراج البلاد وبدأ يكتسب سمعته كرجل نزيه ما أهله لأن يحفظ أدق الأسرار.

وكان محباً للعلماء، حرص على أن يجعل مائدته مفتوحة لأصدقائه وزائريه، وكان يخصص ألف دينار للفقراء في كل شهر، فضلاً عما كان ينفقه من نذور وهبات يبتغي بها مرضاة الله، وحمده على نعمائه، مثل توزيع الطعام في كل يوم على أهل المدينة. وكان نصيب كل مسكين أربعة أرغفة اثنان منهم بالفالوذج (عجين من

النشا والعسل) والآخران بأطعمة مختلفة. وكان التوزيع يـــتم في دار بن طولون وكان يشعر بسعادة حينما يـــرى الفقـــراء يتســـلمون حصصهم من الطعام.

يقول المقريزي "يسره ذلك ويحمد الله على نعمته" وقد أنفق الكثير على تشييد عمائره الفاخرة وأنقص الضرائب ولم يلجـــأ إلى الابتزاز من أجل توفير المال اللازم لمنشآته بـــل عمـــد إلى تحســـين استغلال الأموال العامة..

يقول"اولج فولكف" كان ابن طولون قد جاء إلى مصـــر شـــابا في السادسة والثلاثين، فقيراً حتى أنه اضطر إلى اقتراض عشـــرة آلاف دينار من صديق له كي يغطي مصاريفه الأولى، لكنه عندما مات بعد ستة عشر عاماً خلف عشرة ملايين دينار في الخزانة العامة، وحرســـاً من سبعة إلى عشرة آلاف مملوك، وأربعة وعشـــرين ألـــف عبـــد، وباصطبلاته ثلاثمائة جواد وألوف البغال والحمير والجمال فضلاً عن أسطول من مائة مركب حربي.

أمر ابن طولون بحرث الأرض التي ستقام عليها مدينة القطائع أو الأحياء في جبل يشكر، وسبب هذه التسمية أن كـــل طبقـــة أو جنسية عاشت في حي مستقل بها مثـــل (خـــدم القصـــر والـــروم والسودانيين) وقد اختير هذا الموقع لأسباب عدة، منها رغبـــة ابـــن

طولون في أن يحيا في مكان أقل رطوبة من (العسكر)، وأكثر إنعاشا.. فضلا عن أن هذا المكان يسهل الدفاع عنه ضد أي عـدو محتمـل لقربه من جبل المقطم، ولا يجب أن ننسى أن النيل في هذا العهد كان قريبا من جبل يشكر مما أدى إلى ظهور برك ومسـتنقعات بتلـك المنطقة.. وقد جرت العادة لدى الملوك الشرقيين في تجنبهم سـكن مساكن خلفائهم وتفضيلهم لبناء قصور جديدة إما ليبهروا رعاياهم، وإما للمحافظة على جلال سلطانهم بابتعادهم عن رعاياهم المـدنيين الذين غالبا ما تملأهم روح الثورة، وبالتالي يمثلون خطـراً علـيهم، وربما دفعه إلى هذا أيضاً تشاؤمه من سكنى مساكن قوم قد أصـابهم سوء الحظ فإن سقوط أسرة حاكمة في الشرق كان يعني النهاية لمدينة وتأسيس أسرة حاكمة يؤدي إلى بناء مدينة جديدة.

يقول "أولج فولكف": امتدت القطائع من ميـدان الرميلـة بسفح المقطم حتى جامع زين العابدين، وكانت مساحتها ميلاً مربعاً واحداً، وعلى جبل المقطم بنى قصراً بديعاً في الموقع الـذي كانـت تشغله قبة الهوا، وكانت به حديقة كبيرة وحلبة للسباق (ميـدان)، وأفرد فيه بناء مستقل للحريم، وبالمثل أقام الموظفون لهم مسـاكن في أماكن متفرقة وازدانت المدينة بعمائر جليلة مثل القصور والحمامات والأسواق التي تقطعها السكك والأزقة.

جامع بن طولون

شيَّد أحمد بن طولون جامعه بين عامي (**678–778**م) ليكون أحد الآثار الباقية من مدينة القطائع، ويروي المقريزي أن ابن طولون عثر على المال اللازم لبنائه في صورة كنز في جبل المقطم، وقد اعتزم بناءه بحيث يتسع لكل أهل القطائع لأن جامع عمرو كان قد ضاق بالمصلين منذ وقت طويل، واختار موقعه على قمة التل الصخري الموجود على قمة (يشكر) المسطحة لأنه موقع تجاب فيه الدعوات، حيث قيل إن النبي موسي عليه السلام كان قد خاطب الله تعالى على ذلك التل.

والرائي لهذا الجامع الضخم يتأكد أن ابن طولون أضفى عليه طابع القلعة، فثمة شرفات كثيرة وحوائط عالية. وقيل إن لمدينة القطائع طابعاً عسكرياً شاركتها فيه مدينتا الفسطاط والعسكر، ويكشف تخطيط المدينة عن منشآت ابن طولون الضخمة التي كان يقطعها شارع تجاري ممتد بين الجامع والقصر والميدان.. وسرعان ما التحمت مباني القطائع بحدود الفسطاط والعسكر واختفت خرائب البيوت القديمة، وكان العمل في بناء الجامع يتم بخطوات سريعة وأقيمت فيه الصلاة الجامعة بحضرة الأمير بعد عامين فقط، وفي البداية واجهت ابن طولون مشكلة تدبير **300** عمود من الرخام لحمل عقود الجامع، وكان لابن طولون مهندس مسيحي، وقد سجن

هذا المهندس لأمر تافه، فأرسل لابن طولون قائلا أنه يستطيع بنـــاء الجامع بالأبعاد المطلوبة دون استخدام أعمدة عدا عمودي المحراب، فاستدعاه فورا وطلب منه أن يرسم تخطيطا للجامع الجديد، ونفـــذه المهندس وأعجب به ابن طولون فخلع عليه ثوباً شرفياً ومنحه ألـــف دينار لبناء الجامع، وبمجرد أن أقيمت حوائطه منحه عشـــرة آلاف دينار أخرى وفي النهاية بلغت جملة تكلفة الجامع مائة وعشرين ألف دينار، وبدلاً من الأعمدة شيدت دعائم من الآجر غطيـــت بطبقـــة سميكة من الحجر شكلت بزواياها أعمدة ملتصقة.

ويقول "فولكف": فضَّل ابن طولون ألا يستخدم أعمـــدة في جامعه لسببين أولهما أنهم كانوا سيجلبونها من كنائس قبطية مما يؤدي إلى تعكر صفو العلاقات الطيبة بين المسلمين والمسيحيين، وثانيهما أن المواد الجديدة التي اقترحها المعماري كانت أكثر مقاومة للنار إذا ما اشتعل حريق. وأخيرا يرجع بعض مؤرخي الفن الإسلامي أن ابـــن طولون قلد الأسلوب المعماري الذي كان سائدا في وطنه العـــراق، حتى أنه اقتبس من الزاقورة الآشورية شكل مئذنته. لكن الأسطورة دائما أجمل من الحقيقة وهي تقص علينا أن ابن طولون كـــان دائـــم المباهاة بأنه لا يضيع وقته أبداً فيما لا يفيد لكنه رؤي ذات يوم يعبث بورقة وهو شارد الذهن وقد شكلها بأصابعه على هيئـــة قرطـــاس، فسخر من هذا أحد أتباعه. فآلمه هذا، ولكي ينقذ ماء وجهه تظـــاهر

بأنه كان يضع نموذجا لمئذنة الجامع الجديد وأرسل يستدعي أحد معمارييه وأمره بأن يصنع المئذنة للشكل الذي عمله بأصابعه.

ولابد أن مظهر الجامع كان خلاباً في لحظة افتتاحه، فقد كسيت الجدران بالفسيفساء حتى الأفاريز، وبلطت أرضيته بالمرمر وغطيت بحصر بديعة وسجاجيد من البهنسة. وقد كتب القرآن كله بحروف ذهبية على افريز أعلى البوائك يعلوه إفريز آخر بزخارف مفرغة، قيل أنه كان مشغولا على نحو بديع بالعنبر، أما القبة التي كانت تغطي نافورة الوضوء فكانت محمولة على أعمدة رخامية في وسطها تماما توجد النافورة المثبتة في حوض من المرمر الشرقي، وبين الأعمدة الصغيرة امتدت مشبكات ذهبية، وتدلت من السقف المزين بنجوم مصابيح ومباخر. أما المحراب الموجود في بيت الصلاة فقد تألق من التذهيب وطلي بروح الورد والصندل والزعفران. وكان المنبر ودكة المُبَلِّغ من الأخشاب الثمينة. وفي المساء حينما يحل ظلام الليل ترسل المصابيح البرونزية الضخمة خيوطاً من ضياء لا تبدد تماماً الظلام الذي ينكمش إلى ظلال متناثرة على أرض الأروقة، وينطلق كسحابات في فضاء الجامع فتجرد المادة من أبعادها فلا يبقى من الأشياء سوى ظلالها ولمعات من ألوان متغايرة في جو تعبقه رائحة البخور.

ويزعم الرحالة الفارسي ناصر خسرو، أن أحفاد ابن طولون باعوا الجامع للخليفة الفاطمي الحاكم بـأمر الله (**996–1020** م) بمبلغ ثلاثين ألف دينار، وبعد فترة من الوقت شرعوا في هدم المئذنة، وعندما علم الحاكم بذلك أرسل إليهم قائلا: "ألم تبيعوني الجامع فكيف إذا تهدمونه؟".. فرد الطولونيون: "نحن لم نبع المئذنة".. وهذه القصة سواء صدقت أم كذبت يرى فولكف أنها تظهر لنا أن هذا الجامع العظيم كان قد هجر، بعد أن استمر عامرا بالصلاة فترة طويلة، فقد احترقت النافورة الرخامية وقبتها التي شيدت في قلب المسجد سنة **986** م.. وفي وقت من الأوقات اتخذ بيت الصلاة المهمل مأوى للحجاج القادمين من أفريقيا الشمالية قاصدين مكة المكرمة.

وفي عام **1296** م لجأ الأمير لاجين إلى الجامع، واختفى فيه عن عيون أعدائه، وهناك نذر إن ظل على قيد الحياة ليعمرن الجامع، وعندما صار سلطانا وفى بنذره ليتألق الجامع مرة أخرى قرونا عديدة مباهياً بفنونه.

والجامع الآن وإن حافظ علي ضخامته إلا أن بهاءه قد ذبل وشابه الهرم ولف الصمت جوانبه فلا يسمع صوت إلا صرخات الطيور تتردد في جنباته من حين إلى حين، ساد الظلام رحابه وأروقته العديدة، وانقطعت فيه العبادة، ولم تعد الصلوات تسبح في رحاب

بيت الصلاة العتيق، ويبقى جامع بن طولون ذلك الأثر الدال على شموخ مدينة القطائع في عصر الطولونيين.

وقد استخدم الميدان الواسع أمام الجامع للتدريب على المصارعة وركوب الخيل، وكساحة للاستعراضات العسكرية، وكمكان يلهو فيه علية القوم بلعبة "البولو"، وذكر المقريزي أنه عندما كان يُسأل امرؤ إلى أين هو ذاهب.. كان يجيب دائما بأنه ذاهب إلى الميدان، وقد أحاطه ابن طولون بسور فتحت فيه أبواب عدة حمل كل منها اسما خاصا، وأدى دورا محدودا؛ فمن "باب الميدان" كان الجيش يدخل ويخرج، وخصص بابي "الصوالجة" و"الخاصة" للمقربين من ابن طولون، وقصر "باب الحريم" على النساء والخصيان وعرف "باب الدرمون" بهذا الاسم نسبة لاسم عبد أسود ضخم البنية كان يجلس بجواره، وكان مكلفا بتأديب من يخطئ من العبيد السود.

أما "باب الساج" وكان مصنوعا من خشب الساج، وسمي "باب الصلاة" بهذا الاسم لأنه كان مشيداً على الشارع الأعظم (الطريق الرئيسي) الذي كان يؤدي إلى جامع ابن طولون، وقد عرف أيضا باسم "باب السباع" بسبب وجود أسدين من الجبس عليه.

(4)

"مجنون" يمنع بن طولون زيارة المرضى يوم الجمعة

القطائع التي كانت العاصمة الثالثة لمصر الاسلامية نمت وازدهرت خلال 37 عاما هي عمر الدولة الطولونية قبل أن تسقط في أيدي الفاطميين ويحيق بها الخراب والدمار، وتفسح الطريق لنمو وازدهار آخر المدائن الإسلامية وأعظمها في مصر القاهرة.

وتعتبر مدينة القطائع هي العاصمة المصرية الثالثة منذ بداية الفتح الإسلامي، أسسها أحمد بن طولون في عصر الطولونيين عام 870 م وتقع إلى الجانب الشمالي من مدينة العسكر، وأقام وسطها مسجداً يعد من أكبر مساجد العالم الإسلامي وأبهاها، وقسمت (القطائع) إلى خطط أو قطائع تضم كل واحدة منها جماعة من السكان تربط بينهم رابطة الجنس والعمل.. ومازالت آثار تلك المدينة باقية حتى الآن في أحياء مصر القديمة حيث توجد تجمعات متجاورة لحرف مختلفة، فنجد شارعاً بأكمله تبيع حوانيته منتجات زجاجية أو عطوراً أو حلياً ذهبية أو غيرها، مما يؤكد توارث الحرف من جيل لآخر.

وشيدت القطائع على طراز معماري خاص، ونظام للطـــرق والشوارع، ومواقع البنايات والقصر، فكان (الميدان) وهو ميـــدان واسع استخدم للتدريب على المصارعة وركوب الخيـــل وكســـاحة للاستعراضات العسكرية، وكمكان يلهو فيه علية القوم بلعبة البولو، وقد أحاطه بن طولون بسور فتحت فيه أبواب عدة كما أســـلفنا.. وسد الطريق الواسع الذي كان يؤدي إلى قصره بحائط فتحت فيـــه ثلاثة أبواب متجاورة، الأوسط كان مخصصاً للأمير ولم يكن لأحد أن يدخل منه إلا يوم توزيع الصدقات إذ تفتح البوابات الثلاث معاً.

وفي وصفه للقصر يقول المؤرخ أولج فولكف: كان بالقصـــر قاعة يجلس فيها ابن طولون حينما يســـتعرض جيشـــه أو تـــوزع الصدقات، حتى يشاهد من أعلى جموع الناس التي تدخل من بـــاب الصوالجة وتخرج من باب السباع، وفوق هذا الباب كانت توجـــد قاعة أخرى يشاهد منها ابن طولون تدريبات وأسلحة جنوده.. فإن أعجبته مهارة أحدهم منحه هبة تمكنه من العـــيش واللـــبس طبقـــاً لرتبته.. كان هذا مكان جلوسه المفضل.. وكثيراً ما كـــان يســـرح ببصره إلى النيل والفسطاط وضواحيها التي كانت تبدو بوضوح من هذا المكان.

وأحمد بن طولون لم يهتم فقط بملكه وصولجانه، إنمـــا اهـــتم ايضا بشعبه وسلامته، فبالإضافة إلى باب الصدقات المفتوح دائمـــا

للفقراء والمعوذين أقام ابن طولون في القطائع بيمارستانا (مستشفي) عام **872**، وصار محل عناية كبيرة منه، وقد خصصه لعلاج المدنيين وحرم على العسكريين والمماليك، وكان موضعه بين جـــامع ابـــن طولون وتل الجرة من ناحية وقنطرة الخليج والسور الـــذي يفصـــل جبانة الفسطاط من ناحية أخرى، وأوقفت عليه عوائد دار الـــديوان ومساكنه في حي الإسكافية والقيصرية وسوق العبيد، كما شيد فيه حمامين أحدهما للرجال والآخر للسيدات وأوقف إيرادهمـــا علـــى البيمارستان أيضاً.

ولبناء المارستان مقدمات، فذات يوم نما إلى علم بن طولون أن الناس يشكون من نوعية الماء فأرسل في استدعاء العالم والطبيـــب ابن عبد الحكم ليعرف إذا ما كانت شكوى الناس تستند إلى أساس صحيح أم لا، وكانت إحدى القناطر تغذي قصر ابن طولون بالمـــاء الذي تجلبه من عين بالصحراء بالقرب من عين الصيرة.. وحين ذهب ابن طولون إلى هناك وأتى الغلام بابن عبد الحكم الذي شرب حـــتى ارتوى ثم قال للأمير: "سقاه الله من أنهار الجنة، فلقد أرويت وغنيت ولا أدري ما أصف أطيب الماء في حلاوته وبرده أم صفائه أو طيـــب ريح السقاية"، فنظر إليه بن طولون وقال: "أريدك لأمر وليس هـــذا وقته، فاصرفوه".. وهكذا فطن ابن طولون إلى أن الناس بحاجـــة إلى علاج لسبب آخر غير الماء، ومن هنا كانت فكرة (الماريستان).

يقول "فولكف": كان علي المرضي أن يخلعوا ملابسهم عند الدخول ويسلموها إلى الخازن مع نقودهم ليحفظها.. ثم يلبسون ثياباً خاصة ويرقدون في أسرة يتناولون فيها الطعام والعلاج.. ثم يقوم الأطباء بفحصهم والعناية بهم حتى الشفاء أي الذي تسمح لهم حالتهم الصحية بتناول طعام مؤلف من خبز ودجاج، وعندئذ ترد إليهم نقودهم وملابسهم.

زيارة يوم الجمعة

ويروى أن ابن طولون اعتاد أن يزور المارستان يوم الجمعة من كل أسبوع، فيتفقد المخازن والأطباء ويعود المرضى والمجانين، وبينما كان يزور المجانين خاطبه أحدهم، وكان مكبلاً بسلاسل، قائلاً : "أيها الأمير.. اسمع كلامي ما أنا بمجنون" ومنذ ذلك الوقت امتنع الأمير عن زيارة المارستان.

وطبقاً لرواية المقريزي فقد تم بناؤه، كالجامع من ألف دينار وجدها الأمير في صورة كتر منحها الله له مكافأة لإبطاله"المعونات" و"المرافق" (نوع من الضرائب) فعندما كان يعدو بجواده في الصحراء تعثر جواد أحد أتباعه وانغرست ساقه في إحدى الحفر وعندما وسعت الفجوة تبين أن بها مليون دينار.. ويرى "أولج فولكف" أن

ابن طولون قد أحس بقوته فامتنع عن إرسال الجزيـــة الســـنوية إلى بغداد عاصمة الخلافة، فتوفر له مال اعتزم إنفاقه في تجميل (القطائع) .. ويذكر المقريزي أيضاً أن ابن طولون شيد قلعة في الروضة ســـنة **876** م لتكون ملجأ لحريمه وكنوزه إذا ما داهمه خطـــر.. وأيضـــاً للدفاع عن الممر المائي الذي فصل الجزيرة عن الفســـطاط، لكـــن فيضاناً عالياً دمرها.. ويذكر الإدريسي أن ابن طولون شيد جامعين أحدهما في حي القرافة والآخر في الجزيرة التي شكلها فرعـــا النيـــل (الروضة) ومسجداً ثالثاً بالجزيرة.

بعد وفاة ابن طولون اعتلى العرش خمارويه ثاني أبنائه البـــالغ عددهم ثلاثة وثلاثون.. وكان الابن الأكبر عباس مسجوناً حينذاك عقاباً لتمرده على أبيه، وحتي يتجنب أي صراع في المستقبل علـــى العرش قام الحاكم الجديد بخنق أخيه الذي رفض أن يبايعه، وكـــان خمارويه في الحادية والعشرين من عمره، مولعاً بالترف، لذلك وقـــع فريسة سهلة لشهوة السلطة فأساء استخدامها، وفي ســـنواته الأولى صادفته الكثير من المتاعب والأخطاء، فكان فراره المشين أمام أعدائه أتباع الخليفة العباسي في أول معركة معهم، إلا أنه ما لبث أن ثـــاب إلى رشده وصار ملكاً نشطاً لم يحافظ على مُلك أبيه وحســـب بـــل استطاع أن يمد سلطانه إلى مناطق أبعد.

وفي عهده تعرضت مصر لزلزال دمر العديد من المنازل وأصاب جامع عمرو والفسطاط بأضرار وراح ضحيته ألف من الأرواح، وعندما اشتد عوده وتأكد من إحكام قبضته على أمور البلاد انصرف إلى تطوير القطائع، فهدم منشآت أبيه ليعيد بناءها على نطاق أعظم، فزاد في مساحة القصر وحوَّل الميدان إلى حديقة غرس فيها زهوراً وأشجاراً من أنواع شديدة الندرة، وعلى جذوع بعض النخيل ثبتت أنابيب من رصاص أحيطت بغلاف من النحاس والذهب، وعندما كان الماء يخرج من الأنابيب كان يخيل للناظر أنه يخرج من جذع النخلة نفسه، ويسقط في أحواض نظمت بحيث يمكن منها توزيع المياه على القنوات العديدة التي كانت تروي الحديقة، وكان بها أحواض ريحان اعتنى البستانيون بتنسيقها عناية فائقة وشكلوا من الأزهار صوراً بديعة.

يقول "فولكف": من أجل خمارويه هجنت بعض أشجار المشمش مع أشجار اللوز.. وقد شيد في وسط الحديقة برجاً من خشب "الساج" اتخذ بيتاً للطيور، وقد زينت جدرانه بنقوش بارزة ملونة بألوان عدة، وكانت قنوات المياه تخترق أرض الحديقة كما كانت الطيور تسبح وقد أسبغت بأصواتها وألوانها الحياة على الحديقة.

داخل قصر خمارويه بنيت قاعة عرفت بـ "بيت الذهب" كانت جدرانها الرائعة تلمع ببريق الألوان التي اتخذت من الذهب واللازورد، وعليها نقشت صورة خمارويه نقشاً بارزاً مع صور لزوجاته، وقد نفذت الرسوم بأناقة ومثلت الشخصيات ترتدي تيجاناً من الذهب الخالص أو عمائم مثقلة بالأحجار الكريمة وفي أذانهم أقراط ثقيلة.

وأمام القصر كانت توجد بركة لامعة من الزئبق، فقد شكا خمارويه لطبيبه من الأرق فنصحه الطبيب بأن يحفر حوضاً ويملأه بالزئبق، فصنع حوضاً مربعاً في كل زاوية منه عمود من الفضة الخالصة، وثبتت إليهم ستائر حريرية تتحرك بواسطة حلقات من الفضة، وأمر بصناعة حاشية من الجلد، فاذا ما نفخت وضعها على الزئبق وأغلق الستائر ونام على الحاشية التي كانت تتأرجح مع حركات الزئبق، فتساعده تلك الهزات على النوم، وفي الليالي المقمرة كان نور القمر المنعكس على سطح البركة الزئبقية يخلع على المنظر ثوباً سحرياً يبعده عن عالم الواقع.

وبنى خمارويه في قصره بيتاً للأسود، كان أحدهم يسمى زريق لزرقة عينيه، وكان شديد التعلق بخمارويه ويتمتع بحرية كاملة، حيث يجوس في القصر دون أن يؤذيه مخلوق، وفي الليل كان يرتدي طوقاً

ذهبياً ويسهر بجوار الأمير النائم ليحرسه، وقـد ضـمت بيـوت الحيوانات الأخرى نموراً وفهوداً وفيلة وزرافاً.

وفي بيت الحريم الذي بناه خمارويه خصص لنسائه ونساء أبيه مسكناً شديد الاتساع، حتى أنه اتسع فيما بعد لإيواء قائد وأتباعـه عندما سقطت الدولة الطولونية، وكان الفائض من طعام كل وجبـة في القصر عظيماً، واعتاد الخدم بيعه، فاذا ما حل ضيف مفاجئ بمنزل أحد العامة ولم يكن لدى صاحبه وقت كاف لإعداد الطعـام كـان يكفيه الذهاب للقصر ليشتري بعضاً من بقايا المائدة .

كون خمارويه حرساً عظيماً بعضه من رجال "الحوف" وهـم قوم عرفوا بالشجاعة وان امتهنوا السرقة وقطع الطريق.. أما بـاقي أفراد الحرس فكانوا ألف زنجي، وتألف زيهم من درع جلدي وثياب وعمامة سوداء.. وكانوا إذا ما خرجـوا للاسـتعراض مسـلحين بسيوفهم ظهروا للرائي كنهر أسود منساب تتناثر عليه لمعات بيضاء هي حواف الكالوتات (نوع من أغطية الرأس) البيضاء التي تظهر من تحت عمائمهم.

وأثناء المواكب كانوا يمرون أولاً ثم يأتي خمارويه محاطاً بأتباعه وكانت رهبته عظيمة حتي إن مخلوقاً لم يكن ليجرؤ علي أن يشير إليه بأصبعه أو يتحدث إليه أثناء سيره أو يحاول الاقتراب منـه خشـية

العواقب.. فإذا ما سار ساد الصمت جميع الناس فلا يسمع كلام ولا سعال أو عطس أو حتي أقل نفس.. فكأنهم واقفون وعلي رؤوسهم الطير.

وكان خمارويه قد بنى "ميداناً" آخر أكبر من ميدان أبيه، وبنى قبة في قصره تشبه قبة الهواء سماها "الدكة" زودت بأستار يمكن عن طريقها التحكم في درجة حرارة الغرفة، وكان من الممكن تحريكها إلى أعلى أو إلى أسفل.. وفرشت أرضياتها بسجاجيد منتقاة صنعت كل واحدة بنفس أبعاد الغرفة.. كثيراً ما كان يجلس في هذا المكان ليتأمل قصره وملحقاته وحديقته.

قتل خمارويه على سريره أثناء نومه على يد بعض خدمه، وكانت كما يقول فولكف جنازته مشهداً كئيباً فقد أخذت نساؤه ونساء خدمه وموظفيه في النواح والعويل ولطخ بعض العبيد ملابسهم بالسواد ومزقوها.. كان البكاء عظيماً يمزق نياط القلوب واستمر حتى وري التراب.. أما القتلة فكان عليهم أن يغالبوا الألم المبرح لساعات قبل أن يموتوا على صلبانهم.

ويضيف "فولكف": وسرعان ما انكشف عجز أبناء خمارويه عن صيانة إرثهم ودخل القائد العباسي محمد ابن سليمان القطائع غازياً على رأس جيش من جيوش خليفة بغداد في **10** يناير **905** م،

فذبح الحرس الأسود وأحرق أحياءهم ونهب المدينة تماماً لكنه احترم جامع ابن طولون إلا انه لم يتورع عن نهب المنازل ومعاملة السكان معاملة الكفار، شيئاً فشيء تهاوت بيوت القطائع المائة ألف، وأجهزت الفوضى والمجاعة التي أصابت مصر في القرن الحادي عشر الميلادي على البقية الباقية منها، وحتى يجنبوا الخليفة فيما بعد منظر تلك الأطلال المحزنة شيد حائط عام 1070م يصل بين القاهرة والفسطاط من باب زويلة حتى جامع عمرو.. وصارت تلك الخرائب محجراً يقصدها الناس بحثاً عما قد ينفعهم في تشييد بيوتهم.

وهكذا عاشت الدولة الطولونية 37 عاماً تمتعت خلالها القطائع بدرجة من الثراء والرفاهية لم تشهدها مصر منذ الفتح العربي، واذا ما كانت المدينة التي شيدها ابن طولون وجملها ابنه خمارويه قد آلت رماداً فإن ذكراها عاشت طويلاً في ذاكرة الأجيال التالية، وقد تغنى بعظمتها الشعراء وبكوا نهايتها المبكرة.

(5)

بيع جارية لبنت ملك الإخشيد يقنع المعز بغزو مصر

كانت القرون الأولى للإسلام في مصر والتي أنشئت فيها مدائن الفسطاط والقطائع والعسكر تمهيدا لإنشـــاء أم المدائن الإسلامية "القاهرة" وهي نشأت في فترة تغيرات في الأوضاع السياسية بالدولة العباسية وفي موقع قريب ومجاور للمدن الإسلامية الأخرى في مصر (الثـــالوث: الفسطاط، العسكر، القطائع) ثم تعانقت معها واحتوقما كأجزاء من امتداداقما عبر التطورات الحديثة.

والقاهرة تنتسب إلى الأسرة الفاطمية وأعظم ملوكها المعز لدين الله الفاطمي والتي ينتهي نسل هذه الأسرة إلى فاطمة الزهـــراء بنـــت الرسول صلى الله علية وسلم، ومن أريحية هـــذا النســـل الطيـــب اكتسبت القاهرة الكثير من عبق ماضيها وأصالتها، كما اكتســـبت من شخصية جوهر الصقلي، سليل أبناء أسرة اســـلامية في صـــقلية الأوروبية والذي كان بارعا في علوم الدين كما في علوم السياســـة وفي فنون الإدارة كما في فنون الحكم فأضفت عليها تلك الســـمات

الجامعة لثقافات وحضارات ثلاث قارت آسيا وأفريقيا (حيث قدمت جيوش المعز من القيروان في تونس وأوروبا حيث أصل جوهر الصقلي) وهي السمة التي لازمت القاهرة التي أصبحت ملتقى جنود وطلاب من شتى بقاع وقارات العالم القديم وتوالى عليها في الحكم الأسر والمماليك من شتى بقاع الأرض قبل أن يحكمها حاكم مصري لأول مرة منذ مئات السنين بعد حركة **23** يوليو **1952**.

دخل القائد جوهر الصقلي إلى مصر في يوم الجمعة الموافق **19** شعبان سنة **853**هـ، ولم تعجبه مدينة الفسطاط فشرع في بناء القاهرة، وذلك كما يقول المؤرخ ابن إياس في (بدائع الزهور).

وأثناء إنشاء القاهرة عانى العالم الإسلامي من اضطرابات عاصفة؛ فقد أخذت شمس العباسيين في المغيب بعد أن كانت قد وصلت إلى ذروتها أبان حكم هارون الرشيد (**786-808**م) وابتلعتها الأمواج التي أثارتها الصراعات المتوالية على العرش وتوارث الأمراء وأطماع الحرس التركي.. وقد رأى العباسيون (أحفاد العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم) من مقعدهم في بغداد ظهور الأسرة الفاطمية المنافسة في القيروان، وبينهما صارت مصر محصورة وكان عليها الاختيار بين الولاء لدولتهم الآخذة في الضعف وبين الولاء للأسرة الفاطمية المفعمة بالفتوة والقوة.

يقول المؤرخ الفرنسي "أولج فولكف": تولى المعز لـــدين الله رابع الخلفاء الفاطميين العرش سنة **953** م وعلى النقيض من أسلافه تبوأ مكاناً في التاريخ، فلقد كان الخلفاء السابقون رجال حـــرب لم يدركوا لغير القوة معنى، أما هو فكان رجل دولة ذا عقلية سياســـية فعرف كيف ينتصر على عدوه في ميدان القتال ثم يتبع هذا بأعمال دبلوماسية تمكنه من استغلال النصر خير استغلال.

ولم يكن أجداده يتمتعون بقسط كبير من الثقافة، بل قليلاً ما اهتموا بها أو بالعلوم.. غير أنه كان رجلاً متعلماً ينظم الشعر ويولع بالأدب العربي ويعرف السلافية والإغريقية واللـــهجات البربريـــة والسودانية، وجمع إلى هذا فصاحة تأخذ بالألباب فهو قادر على أن يوقد الحماس في قلوب الناس تارة، وتارة أخرى يفجر من عيـــونهم الدمع.. وكان ضنيناً بالمال العام جواداً بماله.. وأظهر حبه للعدالـــة نبل غايته.. وكان شديداً على قومه حتى يحفظ الأمن والاستقرار في أرضه بيد أنه أظهر ليناً وتسامحاً مع المقاطعات البعيدة التي حافظـــت على ولائها بذلك.

ولما كانت الرغبة تملؤه في توسيع ملكه فقد كان من حســـن طالعه أن يجد شخص جوهر ليقوم بهذه المهمة، وجوهر كان عبداً من أصل صقلي أو يوناني ثم ارتقى إلى مرتبة سكرتير الخليفـــة الســـابق

وعندما اعتلى المعز العرش جعله وزيراً وقائداً لجيوشـــه، ولنتوقـــف برهة أمام شخصية جوهر المؤسس الحقيقي للقاهرة..

ولد جوهر عام **903** م بجزيرة صقلية والده كان يـــدعى عبدالله بعد أن اعتنق الإسلام ولا يعرف شيئاً عن جده حتى اسمـــه.. وتلقى جوهر تعليماً جيداً أوروبياً وعربياً مما جعله قادراً على فهـــم التيارين الثقافيين اللذين سادا منطقة البحر المتوسط في هذا العهد.. ونجح عن جدارة في اكتساب إعجاب المعز الذي قدر فيـــه مواهبـــه وعلمه، وعينه وزيراً عام **859**م ثم قائداً للقواد، ونفذ بنجاح بـــاهر العديد من المهام الصعبة.. وبذلك أظهر جوهر نفســـه كمحـــارب عظيم ودبلوماسي كفء وإداري ناجح وأخـــيراً كـــرئيس عـــادل ورحيم.. وقد كلف عام **859**م بتهدئة شمال أفريقيا فغادر القيروان وقاد جيشه المظفر حتى وصل إلى ساحل الأطلنطي وهناك ملأ إنـــاءً بأسماك حية وأرسلها إلى الخليفة كدلالة على أن إمبراطوريته تمتد إلى ساحل المحيط.. وكما أن أهم أعمال المعز لدين الله غزو مصر فـــإن تأسيس مدينة القاهرة أهم أعمال جوهر الصقلي.

وقديماً قال أحد الحكماء العرب في وصف مصر إنها أرض غبراء، كالمرأة العارك (أي الحائض) تطهر بالنيل كل عام، وهي مسكن الجبابرة وديار الفراعنة هواها راكد وحرها زائد، وشرها بائد، وهي معدن الذهب، مفارس الغلال، تسمن الأبدان، تنمو فيها الأعمار، وقال آخر: أهل مصر يتحدثون بالأشياء قبل وقوعها، ويخبرون بالأمور المستقبلية قبل كونها، وسبب ذلك أن منطقة الجوزاء تسامت رؤوسهم.. فلذلك يتحدثون بالأشياء قبل كونها بمدة.

ويروي المقريزي حكاية تعبر عن الرأي الشائع لأهل القيروان عن المصريين حينذاك.. أرسل أحد المغاربة جارية إلى مصر لتباع بألف دينار.. فأتت سيدة وساومت على شرائها بعد أن فحصتها ثم اشترتها بستمائة دينار، وكانت السيدة ابنة الإخشيد محمد بن طغج ملك مصر حينذاك.. وعندما عاد التاجر إلى وطنه روى الحكاية للمعز الذي أرسل في استدعاء الشيوخ وأمر التاجر برواية الحكاية مرة أخرى.. وعندئذ صاح: "يا إخواننا انهضوا إلى مصر، فلن يحول بينكم وبينهم شيء فإن القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشتري جارية لتتمتع بها وما هذا إلا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم فانهضوا لمسيرنا إليهم".. فأجاب الشيوخ: "سمعاً وطاعة"، وأعلنوا استعدادهم

للانضمام إلى جيوش الخليفة التي تقصد مصر لغزوها، ولمدة عـــامين أخذ المعز في تجهيز حملته حيث حفرت الآبار وشيدت اســـتراحات للجيش على طول الطريق من القيروان إلى الإسكندرية، وفي مصـــر مهدت الطريق للحملة دعاية للشيعيين العلويين، وقد جنت سياســـة التسرب ثمارها فقد وجدت بذور الثورة التي بـــذرها الفـــاطمين في مصر التي أهملها العباسيون أرضاً خصبة قويـــت وامتـــدت فيهـــا جذورها.

بعد وفاة كافور العظيم تولى العرش طفل يدعى ابن الفرات، وقد كرهه رعاياه، الذين كانوا دائماً عرضة للاعتقال والمصـــادرة، وفي عام **967** م كان فيضان النيل شحيحاً مما أدى إلى مجاعة أعقبها الوباء، ثم أضيف لكل تلك المصائب هجوم الفئران والجراد، فمات في الفسطاط وضواحيها أكثر من ستمائة ألف رجل.. فضلاً عن هذا أخذ القرامطة في مهاجمة القوافل وعاث النوبيون فساداً في أســـوان فهاجر الناس وقد ملأهم اليأس إلى البلاد المجاورة.

وقد فر من مظالم ابن الفرات يهودي اعتنق الإسلام يعقوب إبن كلس كان صاحب حظوة لدى كافور في السابق، ولجأ إلى بلاط المعز وأمده بكثير من المعلومات النافعة عن مصر.. فجمع المعز جيشاً كبيراً ودعيت القبائل العربية إلى الانضمام تحت لواء المعز.. وقد حمل الجيش معه **24** مليون دينار وفرقت عطايا ثمينة بين الجند.. وغـــادر

جوهر القيروان في فبراير عام 969م على رأس جيش بلغ تعداده مائة ألف مقاتل مجهزين بخير عتاد وبصحبتهم ألف جمل وعدد لا يحصى من الخيول التي حملت بالفضة والمؤن والذخائر وقد استعرضهم الخليفة بنفسه، وعندئذ قبل القائد يد الخليفة وحوافر جواده، ثم مر الأمراء والقادة وعلية القوم في صفوف سائرين على أقدامهم أمام جوهر الذي خلع عليه الخليفة بردته وحصانه تعبيراً عن حظوة جوهر الفائقة لديه.

يقول فولكف: ولم يلق جيش المعز سوى مناوشات بسيطة عندما وصل إلى مصر، ويروي المؤرخ ناصر خسرو أسطورة تحكي أن المغاربة كانوا يخشون عبور النيل الذي كان يعج بالتماسيح.. لكن المعز طمأنهم وتنبأ لهم بأنهم سيرون كلباً أسود سيقودهم إلى ضفة النيل وسيريهم الطريق الذي عليهم أتباعه.. وجرت الأمور كما تنبأ الخليفة وتمضي الأسطورة زاعمة أن الجيش بأكمله قد عبر النيل دونما أن يغرق فارس واحد أو أن يلتهم تمساح جندياً.

واستسلمت أغلبية السكان دون قتال، أما مراكز المقاومة النادرة، فقد صفيت بسرعة ورغب أهل الفسطاط في تجنب أهوال القتال، ولذا قطعوا رؤوس بعض من قاوموا الفاطميين وأرسلوها إلى جوهر الذي أرسلها بدوره إلى المعز ثم أرسل رسولاً يحمل راية بيضاء وأخذ الرسول يطوف بشوارع الفسطاط منادياً بالأمان وبمنع

السلب.. وفي اليوم التالي الخامس من أغسطس 969م دخل الجيش الفاطمي الفسطاط رافعاً رايته وداقاً طبوله.. توجه جوهر الصقلي مرتدياً ثوباً من الحرير مطرزاً بالذهب إلى جامع عمرو على صهوة جواده البني وقد غطي سرجه بقماش مصري.. وهناك ألقى خطبته في المصلين باسم الخليفة الجديد المعز لدين الله الفاطمي وترحم على أجداده السيدة فاطمة والإمام علي.. ثم ضربت عملة شيعية وبذا فقد العباسيون مصر إلى الأبد وانتقلت السيادة إلى الفاطميين لمدة قرنين من الزمان.

بعد أن مر جوهر بالفسطاط استمر استعراض القوات لمدة سبعة أيام ثم استتب الهدوء سريعاً.. وملأت خيام الجند الأرض الرملية التي تحف بالمدينة وفتحت الأسواق أبوابها وأخذ الغزاة في شراء البضائع المصرية الجيدة.

يقول "فولكف": كان للغزو الفاطمي عواقب مهمة لمصر.. فلقد نظر أهل السنة إلى الفاطميين على أنهم هراطقة وعمدت باقي أجزاء العالم الإسلامي إلى تجنبهم.. لذا انعزلت القاهرة عن الفكر والأدب العربي اللذين ازدهرا في القرنين الحادي والثاني عشر.. وتجنب العلماء الكبار والطلاب جوامع القاهرة حيث تتردد دعاوى الفاطميين.

ويروي ابن إياس: كان المعز يحب العدل والإنصاف بين الرعية غير أنه كان يسب الصحابة يوم الجمعة علي المنابر.. وإذا كانت تلك الفترة قد شهدت ضعفاً ثقافياً إلا أن مصر ارتقت إلى درجة من الثراء المادي لم تجاوزه أبداً في أي من القرون التالية.. وإذا كانت المنازل والمساجد والقصور الفاطمية قليلة العدد نسبياً إلا أن ثراء زخارفها التي أسرف في استخدام الذهب والأحجار الكريمة بها لن يدانى أبداً في العصور اللاحقة.

أوضاع الأقباط

أدى قيام الدولة الفاطمية إلى تغيير كبير في أوضاع المسيحيين بمصر؛ فقد حاول الخلفاء الفاطميون استمالة الأقباط إليهم، وعاملوهم بعناية وتسامح كبير، وهذا يفسر العدد الكبير من الكنائس التي شيدت في ذلك العهد.. فقد صرح المعز للبطريك إفرايم يقال أن جثمانه دفن في الكنيسة المعلقة تحت منصتها وتحديداً كنيسة القديس مرقوريس قديس مسيحي عاش في القرن الثالث الميلادي وكان ضابطاً في الجيش الروماني وقيل أن ملاك الرب تجلى له قبل أن يخوض إحدى المعارك وأعطاه سيفاً وأمره ان يذكر الله إذا ما من عليه بالنصر.. وقد كان.. وعندما عاد رفض أن يحرق البخور لآلهته روما فقبض عليه وعُذب ثم قطعت رأسه.

ويفسر نص منسوب إلى الكاتب الأرماني أبي صالح سبب اهتمام العزيز (ثاني الخلفاء الفاطميين في مصر) بأمر الأقباط بقوله أنه يعزو هذا إلى معجزة تمت على يد البطريرك القبطي الذي أراد أن يظهر للخليفة مدى صدق العقيدة المسيحية فدعا الرب أن يصنع معجزة يثبت بها صحة ما ورد في الإنجيل بأن الإيمان يمكن أن يحرك الجبال، وتحققت المعجزة فتحرك جزء من جبل المقطم بالقرب من تل الكبش.

هذا وعين في منصب الوزارة يهود ومسيحيون اعتنقوا الإسلام.. وأولع الكثير من الخلفاء الفاطميين بزيارة الكنائس والأديرة القبطية، ولكن كيف كانت المنطقة التي قدر للقاهرة أن تشيد عليها لتصبح من أهم مراكز الإشعاع الثقافي ومنارة إسلامية سامقة؟ هذا ما سنعرفه في الحلقة التالية.

(6)

المعز يوبخ قائده لأنه اختار موقع القاهرة بعيدًا عن النيل

قصة بناء القاهرة نسجت حولها حكايـــات وأســـاطير بعضها له شيء من الحقيقة وأكثرها كان جنوحاً وخيالاً ومن هذه الأشياء التي لها جذر من الحقيقة أن القاهرة في البداية لم تكن مطلوبة كعاصمة ملك ومدخل قارة بـــل أراد جوهر الصقلي تشييد قلعة تحمي الفســـطاط مـــن غارات القرامطة، لا مدينة توفر حياة هانئة لسكانها لكن ما أراده جوهر شيء وما حدث كان شيئا آخر..

هذا وقد ارتبطت ببناء مدينة القاهرة أسطورة كما حدث للفسطاط . ويروي المقريزي أن جوهر اختار موقع المدينة الجديدة على بعـــد ميل تقريبا من النهر في الليلة نفسها التي نصب فيها معسكره قرب الفسطاط. ورسم على الموقع مربعا طول ضلعه **360** مترا وغرست على طول محيطه أعمدة متصلة بحبال علقت فيها أجراس. وكان على الفلكيين أن يجتمعوا ليحددوا لحظة مناسبة لبدء العمل، أي حينمـــا يظهر في السماء كوكب ذو فأل حسن. وفي تلك اللحظة يهـــزون

الحبال حتى تدق الأجراس، وبذا تعطى إشارة لبدء العمـــل في كـــل أرجاء المدينة، وبينما هم ينتظرون إذا بغراب يحط على أحد الحبـــال فتدق الأجراس، فيظن العمال أنها الإشارة فيشرعون في العمل بينما أخذت صرخات فزع تنطلق من الفلكيين، فقد كان كوكب المريخ صاعدا في الفلك وظهوره في تلك اللحظة الحرجة كـــان يعـــني أن المدينة ستستعبد لأن المريخ قاهر الفلك، ولما كان مستحيلاً الرجوع فيما قد تم أو تغيير إرادة السماء فقد قرر أن تسمى المدينة بالمنصورية حتى يتغير الفُال السيئ لصالح المدينة. لكن المعز غيّر هذا الاســـم إلى قاهرة المعز على اسم نفس الكوكب الذي ظهر في الســـماء لحظـــة بنائها.

وفي رواية أخرى كان المعز قد اختار اسم المدينـــة الجديـــدة القاهرة وهو لا يزال في القيروان قبل أن يرحل جيشه لغزو مصـــر. إذن كيف كانت تبدو المنطقة التي قدر للقاهرة أن تشيد عليها؟

يقول المؤرخ الفرنسي "أولج فولكف" في كتابـــه (القـــاهرة مدينة ألف ليلة وليلة): كان هناك طريق يخترق المنطقة طوليا، ويربط بين الفسطاط الواقعة في الجنوب وعين شمس بالشمال وإلى الشـــرق كانت هناك قناة عرفت باسم (اليحاميم) وهو خليج كان يفصل بين السهل الذي بنيت عليه القاهرة وقرية أم دنين. وقد ظهرت القنـــاة

في تاريخ لاحق، وإلى الغرب امتدت قناة خليج أمير المــؤمنين، وإلى الشمال الشرقي ينتصب الجبل الأحمر.

وكان بتلك المنطقة بعض المنشآت: مثل الحديقــة المعروفــة باسم حديقة كافور التي شيدها الأمير محمد بن طغــج الأخشــيد، وألحق بها اصطبلات وحلبة للخيول، وقد لامست أطراف الحديقــة خليج أمير المؤمنين. وكان هناك أيضا دير العظام، وهو دير قبطــي سمي بهذا الاسم لأنه كان يضم عظام بعض تلاميذ المسيح. وكانــت بالمنطقة أيضا قلعة بدائية تعرف باسم "قصر الشوك" ومسجد شــيد عام **762** م بين خليج أمير المؤمنين والجبل، وأقيم على البقعة الــتي دفن فيها رأس "إبراهيم" حفيد "أبو طالب" زوج أخت رســول الله صلى الله عليه وسلم، وقد حمل هذا المسجد الكثير من الأسماء آخرها "مسجد تبر" نسبة إلى الأمير "تبر الإخشيد" الذي دفن فيه.

أما الجنوب بين خليج أمير المؤمنين وبين النيل مسافة ليست بعيدة كانت بها حدائق يانعة. وقد عرفت بالمنطقة الحمراء، ثم يواصل النيل مجراه حتي قرية أم دنين ويحاذي منطقة سميت أثناء حكم الخليفة المستنصر "بأرض الطبالة" تكريما لسيدة قد نظمت بعض الأبيات في تمجيد أحد الانتصارات على العباسيين، وقد كافأها الخليفة بتلــك الأرض.

نصب جيش جوهر خيامه في سنة 969م وعندئذ بدأ العمل بحماسة في تشييد عاصمة جديدة، وطبقا لتعليمات الخليفة المحـــددة كان على جوهر الخيار بين ثلاث مناطق: الأولى: أن يقلد ابن طولون ويشيد المدينة الجديدة على الأرض الرملية الجافة الواقعة إلى الشمال بين خليج أمير المؤمنين والمقطم، والثانية: شاطئ النيل الذي سيضمن للمدينة الحصول على الماء باستمرار فضلا عن استخدامه كطريـــق للنقل التجاري عليه ميناء مزدحم بالمراكب، والثالثة: جبل الرصـــد الذي يجمع إلى المزايا السابق ذكرها ارتفاعه الذي يحمي المدينة مـــن مياه الفيضان، وقربه من النيل الذي يضمن إمدادات المياه فضلا عن الفوائد المادية التي ستجنيها مدينة مشيدة فوقه من النقل النهري.

وفضل جوهر الموقع الأول، وطبقا للقلقشندي فقـــد وبخـــه الخليفة المعز على هذا الاختيار لبعد المواقع عن النهر مصدر الميـــاه والحياة.

لقد كان في ذهن معماري القاهرة حقيقتان سياســـيتان. إن الفاطميين شيعيون يحيط بهم في مصر شعب ســـني، وإنهـــم اعـــداء للعباسيين سادة خراسان والعراق وأرض بلاد النهرين، ولذا فلابد أن تنافس عاصمتهم بغداد العظيمة وأن تليق بدولة عظيمـــة مـــن دول حوض البحر المتوسط، لا أن تكون مجرد عاصمة لولاية، ولذا كـــان لابد للمدينة الجديدة من أن تكون محصنة تحصينا يكفـــل الحمايـــة

للخليفة المقيم بها ضد أي تمرد محتمل وأن تكون لائقة بسكن ملـــك عظيم، ولذا فلم يدخر وسعا في تجميلها.

يقول فولكف: بنيت تلك المدينة ليسكنها الغزاة المنتصرون لا رعايهم، ولذا كانت القاهرة في ذلك العصر مدينة أرســـتقراطية تذكرنا بالمدينة الإمبراطورية في بكين أو الكرملين في موسكو.

القاهرة المحروسة

اتخذت العاصمة الجديدة مظهر مدينة محرمة، فقد كان على من يريد أن يدخلها، أن يذكر سببا قوياً وأن يحمل تصريحاً، ولذا فليس مـــن الغريب أن تدعى "القاهرة المحروسة"، وبدون تصـــريح كـــان مـــن المستحيل أن تدخلها شحنة من خشب أو حتى من قش، وكان على السفراء الأجانب أن يمروا بين صفوف الحرس إذا دخلوها، كما كان على الفارس أن يترجل عن جواده عندما يدخل من باب الفسطاط، وعلى هذا الباب كان الوزراء المغضوب عليهم يقفون منتظـــرين أن يتعطف مولاهم ويسمح لهم بالمثول أمامه.

وعند تتويج الخليفة كان النبلاء يسيرون وراء الخليفة علـــى أقدامهم حتى باب زويلة وباب الفتوح، وقد عاش هذا التقليـــد في احتفال المحمل عندما كانت مصر ترسل إلى مكة المكرمـــة أســـتارا

جديدة للكعبة كل عام محمولة على جمل، وكانت المدينة كلها بمبانيها وأرضها الفضاء ملكا للخليفة يؤجر فيها المباني ويمنح الأرض الفضاء حصصا لجنوده. وكان الخليفة ورجال بلاطه هم المستهلكون الوحيدون للبضائع التي تعرضها أسواق ومتاجر المدينة.

وفي البداية عندما كانت القاهرة مدينة الملوك والأرستقراطيين وصفها الرحالة أعظم وصف يليق بمدينة جميلة ويقول الرحالة ناصر خسرو الذي زار مصر بين (**1046** – **1049** م) أن القاهرة واحدة من أكبر مدن العالم، وبها ما لا يقل عن عشرين ألف متجر مملوكة للخليفة، وبها أيضا خانات وحمامات ومبان عامة كثيرة العدد حتى أن مؤرخنا يعجز عن حصرها . وقد شيدت الفسطاط والعسكر حول جامعين كرسا لعبادة الله أما القاهرة، فقد التفت حول قصر (هو مقر الخليفة) وبينما كان نمو كل من العسكر والفسطاط اطراديا كغصن وضع في منجم للملح فأخذت تكسوه تدريجيا بلورات لامعة فحولته في النهاية إلى جوهرة بديعة، كانت القاهرة تحفة فنية شكلها صائغ ماهر في أيام ثم وضعت كما لو كانت توضع في صينية وسط السهل الذي "ينحصر بين النيل والمقطم".

بنيت القاهرة وفق تخطيط هندسي سابق لإنشائها جعل لشوارعها انتظاما معقولا، وقد خطط منها جوهر بنفسه سبعة

شوارع. وقد اخترقها من الشمال إلى الجنوب شارع كبير حتى لا يحجب الناس ريح الشمال المنعشة، وقد اتبع بشكل ما اتجاه الطريق التاريخي الذي سلكه الغزاة الذين هاجموا مصر بين حين وآخر. وقد حافظ شارع النحاسين الحالي على خط هذا الشارع القديم تقريبا.

وكان هذا الشارع (بين القصرين أو قصبة القاهرة) يفصل بين قصرين كبيرين. وفي تلك المنطقة يزداد اتساعه إلى**15** متراً مكوناً ميداناً كبيراً مستطيل الشكل، وتتعامد على هذا الشارع أزقة صغيرة تمتد من الشرق إلى الغرب وتؤدي إلى قنطرة الخليج والمقس. وقد كان الشارع الرئيسي مخصصا للمواكب المهمة وترك للطرق الأخرى الوفاء بالحاجات المادية. وعبر قصبة القاهرة كان السلطان يمر محاطا بالخصيان الذين يحملون في أيديهم مجامر يحترق فيها العنبر والصبر. وكان البروتوكول يحتم على الناس أن يسجدوا على الأرض لحظة مرور الخليفة داعين له الله بالخير. أما الشوارع الجانبية فكانت تمر فيها عربات محملة بالأخشاب أو الأحجار أو الماء أو البضائع المفرغة في ميناء المقس.

وشيدت المنازل بعناية فائقة حتى ليخيَّل إلى الرائي أنها من أحجار كريمة لا من ملاط وقرميد وأحجار عادية، وكانت منازلها منفصلة الواحدة عن الأخرى حتى أن الأشجار المزروعة في واحدة

منها لا تلامس أفرعها المترل الآخر، وكل منها مزودة بحديقة أجملها يحيط قصر الخليفة.

بينما اعتبر رحالة آخرون مدينة القاهرة من أجمل وأعظم مدن الشرق، ولا تفوقها مدينة أخرى حتى مدينتي الأستانة ودمشق لا تملكان سحر القاهرة على حد وصف بواتو. وفي كتاب (مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر) تقول د. إلهام ذهني: أعطت القاهرة للرحالة شاتوبريان إحساسا بأنها مدينة ألف ليلة وليلة وأنها عاصمة العالم فهي "المدينة التي أعطتني فكرة وطابع الشرق". ولم يستطع العالم الأثري الفرنسي شامبليون أن يخفي إعجابه بالقاهرة في رسائله وملاحظاته حيث يقول: "إنني أعشق تأمل مدينة الألف مئذنة" لقد حازت القاهرة على إعجابي بالرغم من الانتقادات التي وجهت إليها.. أما المؤرخ الفرنسي "ميشو" فقال: "من الصعب الكتابة عن القاهرة لأن المرء يخشى أن ينسى أشياءً كثيرة عنها، فهي مدينة كبيرة تجارية تحمل اسم المنتصر الظافر، ويطلق عليها أم الدنيا".

أعطى المؤرخ "فوربان" وصفا لموقع القاهرة "فهي تبعد عن النيل بنحو فرسخ ونصف الفرسخ بنيت على الضفة الشرقية يحدها جبل المقطم والقلعة، وتحيط بها الرمال من كل مكان".. وملاحظات "فوربان" عن موقع القاهرة تتفق مع ما ذكره "فولني" في القرن

الثامن عشر منتقدا مكان تشييدها، لأنها شيدت في مكان منخفض أسفل المقطم مما يعرضها لهبوب الرياح والأتربة، كما أنها تبعد عن النيل وبذلك حرمت من ميزة الحصول على مياهه بسهولة ولذلك فموقعها سيئ وموقع الفسطاط أفضل منها بكثير.

وعلى العكس من ذلك اختلفت آراء الرحالة حول شوارع القاهرة؛ فأكد "جوبينو" أنها تفتقر إلى النظام. وكتب "شولشيه" بأنها ضيقة ومظلمة، ووجدها "فوربان" سيئة ومتربة أما "بواتو" فعقد مقارنة بينها وبين قصر التيه ووجد بينهما تشابهاً كبيراً لأن كليهما يصعب السير فيه، واتفق معه في هذا الرأي "جيراردي نرفال" وأننا نشعر بأننا نسير في اللابرانس، بينما كتب "أدمون ابو": "لقد بنيت بالصدفة" أما "بريس دافين" فقد ضاق بشوارع القاهرة الضيقة التي تحيط بها الدكاكين من كل جانب، وكتب أن السبب في ازدحام شوارع المدينة: "يرجع إلى عدم الاتصال بين الأحياء الرئيسية حيث يتألف نصف مجموع الشوارع من ممرات مسدودة، وكثيرا ما تسد هذه الشوارع الضيقة قوافل من الجمال، فيضطر المارة إلى أن يقفوا حتى يفسحوا لها مكانا وهي بمشيتها الكسلى وأقدامها العريضة ورقابها التي تنحني تارة نحو الأرض وترتفع تارة أخرى يتأرجح عليها من كل جانب إلى جانب رؤوسها التي تنظر في ثوان إلى ما يحيط بها مشهد بالغ الطرافة".

أما "أكزامية" فكتب: "قد تبدو شوارع القاهرة مبهجة مـــن الخارج ولكنها تحوي مشاهد البؤس والكآبة من الداخل والحركة لا تتوقف فيها منذ السابعة صباحاً وحتى مغيب الشمس إنها من أكثـــر المدن ازدحاما في الشرق".

ومن التعليقات الطريفة على شوارع القـــاهرة مـــا ذكـــره "أمبير": "إن إنجازات نابليون العظيمة كانت أقل صعوبة من اجتيـــاز شوارع القاهرة بعربة تجرها ستة جياد نظرا لضيق الشوارع".

وقال بعض المؤرخين إنه كان بالفسطاط حارة تسمى حـــارة الطبق، وكان فيها نحو **20** دارا – كل دار تساوي في الثمن ألـــف دينار، وبيعت الحارة كلها بطبق خبز – كل دار برغيف فسميت من يومئذ بحارة الطبق، وكان ذلك في عهد المستنصر بالله حيث انخفض منسوب النيل، واستمر هذا الغلاء سبع سنين متوالية، فأكلت الناس بعضها بعضا.. أما شامبليون فسجل إعجابه بكل شيء في القـــاهرة حتى شوارعها "لقد حازت مدينة القاهرة على إعجابي بالرغم مـــن الانتقادات العديدة التي وجهت إليها، ويبدو لي عـــرض الشـــوارع ذات الثمانية أو العشرة أقدام محسوبا بدقة للاحتماء مـــن الحـــرارة المرتفعة جدا، إن القاهرة مدينة هائلة مترامية الأطـــراف، ولـــذلك فضيق شوارعها يساعد علي الاحتفاظ بالبرودة بالرغم من الارتفاع الكبير في درجة الحرارة، وهكذا يتضح لنا حماقة الأوربـــيين الـــذين

يعيبون على القاهرة ضيق شوارعها دون أن ينتبهوا إلى أن شـــوارع عريضة واسعة مثل تلك الموجودة في باريس ولندن ســـتكون أتونـــا وسعيرا طوال السنة، ومن ناحية أخرى فان شوارع القاهرة نظيفـــة من أي نوع من الأقذار على الرغم من كونها غير مرصوفة".

(7)

السلطان بيبرس يعيد للأزهر مكانته التي ضاعت أيام الأيوبيين

كان لطبيعة القاهرة الخاصة كمدينة بنيت لتكون مقرا لإقامة الخليفة وكموقع للدفاع عن المملكة في مواجهة الغزو أن اتخذت طابعا معماريا مختلفا، فأصبحت مدينة أرستقراطية، محرم دخولها على الغرباء وأيضا كانت مدينة الأبواب السبعة التي تنفتح على المدينة وآثارها.

وفي قلب القاهرة كانت مدينة مزدانة بالخضرة في شوارعها وحاراتها وأيضا على منازلها وأسقف بيوتها، بينما كان الماء العذب ينقله السقاءون في قرب من الماء إلى البيوت البعيدة، لقد حرص الحكام على تخطيط القاهرة وأن تكون مدينة آمنة وجميلة وساحرة.

وأحاط القاهرة سور يعلوه طريق دائري يتسع لمرور فارسين ومن الصعب تتبع آثار هذا السور على وجه دقيق فلم يكن منتظم البناء وكانت أضلاعه تقريبا موجهة إلى الجهات الأصلية. وفي السور الذي كان يفصل المدينة عن القطائع والعسكر فتح بابان متقاربان هما: "بابا زويلة" وكانا واقعين إلى الشمال قليلا من الباب الحالي

الذي يحمل نفس الاسم، وهو اسم قبيلة من البربر أتت مع جوهر الصقلي، وعندما جاء المعز من القيروان سنة **972** م دخل المدينة من الباب الأيمن فتدافع الناس للدخول من الباب الأيسر ليلحقوا به، وقد أدى هذا إلى إشاعة أن الباب الثاني مشئوم ويفسد مشاريع من يعبره، وقد قيل إن مفصلات ضلفتي الباب اتخذت من الزجاج.

وكان باب زويلة مسرحا لتنفيذ حكم الاعدام العلني مما ساعد على تدعيم السمعة السيئة للباب الأيسر. فضلا عن وجود سوق لآلات الموسيقى كالعود والرباب.. الخ، التي كرهها الدين؛ فصار هذا المكان مقصداً للمغنيين وللراقصين وهم قوم سيئو السمعة واشتد تطير الناس من هذا الباب حتى انتهى الأمر إلى سده تماما.

أبواب القاهرة السبعة

يقول الباحث الفرنسي "أولج فولكف": (أما حائط المدينة الشـــمالي الموازي للحائط السابق فكان به بابان هما "باب الفتـــوح" و"بـــاب النصر" وقد شيدهما معماريون وكانا يقعان إلى الجنوب من البـــابين الحاليين اللذين يحملان نفس الاسم). وفتحت في الحائط الغربي ثلاثة أبواب: باب سعادة، وباب الفرج، وباب القنطرة، وبـــالقرب منـــه كانت توجد قنطرة على الخليج تربط المدينة بضواحيها وبميناء المقس

وأم دنين (الأزبكية الحالية) والمنطقة الواقعة شمالها وكـــان بالحـــائط الشرقي بابان "البرقية" و"المحروق"، وأقام جوهر قنطرة على النيـــل تربط الجيزة بالضفة الشرقية، وحفر خندقا عام **971** م إلى الشمال من القاهرة قرب "منية الإصبع" عرضه عشرة أذرع ومثلها عمقـــه، وكان يمتد من الصحراء إلى الأرض الزراعية وقد حفر لحماية المدينة من غارات القرامطة المتواصلة.

وقدرت المساحة المربعة التي أحاطهـــا الســـور بـــــ **410** هيكتاراً . وكان طول كل جانب من جوانبها يتراوح ما بين **1100** و **1200** متر وهي أبعاد الفسطاط والعسكر، لكن تخطيط القاهرة كان أعظم وأكثر تناسقا، وقد أحسن تخطيطها فظهرت كتحفة فنية قيض لها أن تعيش أطول ما بقت من عمائر العباسيين وابن طولـــون المتعجلة.

يقول ناصر خسرو [وزار مصر بين **1064** و **1049** م]: "من أهم خصائص مصر أن من يريد أن يعمل حديقة يمكنه أن يحقق رغبته في أي فصل من فصول السنة. فمن اليسير هناك على المرء أن يزرع أو يحصل على نبات سواء كان أشجاراً للزينة أو أشجار فاكهة محملة بالثمار؛ فهناك أناس يمارسون هذا النوع من التجارة وهم على استعداد دائم لتوريد أي صنف ولديهم أشجار مزروعة في براميـــل خشبية موضوعة على أسطح منازلهم التي تشبه الحدائق، وهي أشجار

في الغالب مغطاة بالفاكهة من البرتقـال أو الرمـان أو التفـاح أو السفرجل.. ولديهم أيضا مشاتل للورود والريـاحين، وللنباتـات العطرية. فإذا ما رغب إنسان في شيء منها أتـى الحمـالون لنقـل الصناديق الخشبية التي زرعت فيها الأشجار، وتربط الصـناديق إلى قوائم خشبية يحملها الحمالون الذين ينقلونها إلى المكـان المطلـوب. وبعد أن تفرغ الصناديق من محتوياتها تزرع الأشجار التي لم يلحق بها أدنى ضرر. ولم أشهد لهذا مثيلاً في أي بلد في العالم ولم أسمع بهـذا في أي مكان آخر ولابد أن أضيف انها عادة لطيفة جداً" .

ويصف "خسرو" انبهاره بالسواقي التي ترفع المـاء الـلازم لتلك الحدائق بقوله "على الأسطح زرعت الأشجار وبنيت جواسق. أما الماء اللازم للمدينة فقد كان يجلبه السقاؤون من النيل وكان ينقل على ظهر 25 ألف جمل خصصت لهذا الغرض !!!" وبالطبع بـالغ كثيرا في هذا الرقم، وإن كان على أي حال يدل على مدي ضخامة هذه المهمة.

وزودت المدينة أيضا بآبار حفرت بالقرب من النيـل بالمـاء العذب لكن ماءها كان يتحول إلى ملحي كلما بعدت المسافة عـن شاطئ النهر. وكان السقاء يحمل الماء على ظهره في إناء من الفخار المسامي، وكان القادرون يدفعون ثمنا مقابل أكواب الماء أما الفقراء فكانوا يشربون مجانا أو مقابل قطعة من الخبز يضعها السقا في جراب

معلق على جانبه. ولتشجيع هذا العمل النبيل سمح للسقائين بأخــذ الماء دون مقابل من الأسبلة وهي خزانات مــاء شــيدها الأثريــاء وحرصوا على تزويدها دائما بالماء العذب. فضلا عن أنهم أعفوا من دفع الضرائب. وفي الموالد كان الأتقياء يستأجرون السقائين لتوزيع الماء مجانا على الحجاج وعلى من يريد الشرب.

كانت منازل القاهرة غارقة في الخضرة حيث ألفت مجموعــة بديعة منتقاة، وكان من الممكن للمدينة – لولا وجــود العمــارات العالية – أن يكون لها شكل مدن الحدائق المنتشرة في أوروبــا الآن. وإلى الجنوب خارج الأسوار كانت توجد بركة الفيل التي سميت على اسم أحد أتباع ابن طولون، وعلى مياهها كان الخليفة مولعاً بــالتنزه في قاربه ولابد أن المشهد كان ساحرا حينما كانت الجواســق الــتي تحف بها تضاء وقد نظم فيها الشاعر ابن سعيد المغربي قصيدة يقــول فيها:

انظر إلى بركة الفيل التي اكتنفت   بها المناظر كالأهداب للبصر

كأنما هي والأبصار ترمقها   كواكب قد أداروها على القمر

وقد بنى جوهر في شمال القاهرة ديرا للأقباط مكان الــدير الذي هدمه عندما شرع في بناء القاهرة. ويقع بالقرب مــن جــامع الأقمر وكان يعرف بدير العظام وكان به بئر مازال موجودا خلــف

الجامع إلى وقتنا هذا، وقد نقل جوهر رفات القديسين التي كانت محفوظة في هذا الدير إلى آخر بني حديثا هو دير الخندق. وفيما بعد أكد الرحالة "اكزافيه" جهود محمد علي لتوسيع الشوارع وحرصه على تنظيم الأحياء فقد قام بهدم العديد من الشوارع، واهتم بفتح شوارع جديدة خاصة في الموسكي، وحرص على تخطيطها بحيث تتسم بالطول والاستقامة والعرض، وأبدى اكزافيه انزعاجه من عمليات التوسعة والهدم فلا نسمع أثناء السير سوى أصوات الهدم والعربات التي تحمل الأنقاض ولا نرى سوي العمال الذين يعملون على إزالة الأتربة ولا يتوقفون عن العمل.

وتقول الباحثة د. إلهام ذهني: "أما منازل القاهرة فهي تشبه منازل إستانبول، ولكن الأخيرة أجمل وأرق على حد قول دي كان ورأي مونتوليه أن منازل القاهرة تبدو من الخارج مقززة بلا زينة ولكنها من الداخل ولاسيما منازل الأتراك تتسم بالعظمة والفخامة والنظافة فهي مبنية من الأحجار، أبوابها مزينة بأجمل الرسومات، وقد نجد في هذه المنازل العديد من الأعمدة الأثرية معظمها انتزع من الآثار القديمة خاصة في منف، وعبر مونتوليه عن أسفه لهذه الظاهرة حتى إن محمد علي وأولاده انتزعوا الأعمدة الأثرية لتزيين قصورهم.

ولعل هذه القفزة التاريخية بين العصر الفاطمي وحكم محمد علي كانت لبيان مدى التطور الذي لحق بالقاهرة وما اتسمت به

منازلها من الاتساع مع وجود حدائق جميلة بداخلها، فقـــد حـــرص الأهالي على تزيين منازلهم حتى الأبواب والنوافذ التي كانت مزينـــة بالأصداف والعاج، والحجرات متسعة، ويوجد ديـــوان لاســـتقبال الزوار وهو بمثابة غرف للاستقبال، وتزين مدخل المنزل نافورة كبيرة من المرمر، والفناء الداخلي سقفه مفتوح يسمح بـــدخول الهـــواء والضوء، ويحرص الأتراك وكبار القوم والأثرياء على تزيين منـــازلهم بالمفروشات الرائعة والثمينة. وتتكون المنازل من عدة طوابق وتغطى الوجهات بمشربيات جميلة الصنع مزينة وتخصـــص الأدوار العليـــا لسكن النساء.

الجامع الأزهر

بنى جوهر الصقلي – جامع الأزهر – وهو أول جامع بني بالقاهرة، وإنما سمي بالأزهر لزهارته بين الجوامع، وكان بناؤه من أهم أحداث تلك الفترة حيث استغرق عامين، وقد بدأ فيه العمل في **4** أبريل سنة **972**م في المنطقة المجاورة لقصر المعز. ويرجع الفضل في إنشـــائه إلى "يعقوب بن كلس" وكان في الأصل يهوديا ثم اهتدى للإسلام. وقد كان يدعى هذا الجامع أحيانا جامع القاهرة، وقد لعب جامع الأزهر في المدينة الجديدة نفس الدور الذي لعبه جامع عمرو في الفسطاط، وجامع ابن طولون في القطائع، فكل منها كان مركزا دينيا لمدينتـــه،

وفيه كانت تؤدى صلاة الجمعة ويخطب الخليفة في جموع المصـــلين. وفي عام **990** م بني الجامع الأنور (فيما بعد الحاكم) على الطرف الشمالي لمدينة القاهرة وقد تمتع بنفس امتيازات الجامع الأزهر.

يقول ابن اياس في بدائع الزهور: (فلما بني جامع الحاكم بأمر الله تلاشى أمر جامع الأزهر وخُرب وأقام مدة طويلة وهو خراب إلى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقداري فأمر بإصلاحه وأعاد فيه الخطبة بعد تعطله لمدة طويلة) .

وقيل إن جامع الأزهر كان به تنور فضة – و **27** قنديلاً من الفضة وفي محرابه منطقة فضية – وكان به طلسم برسم الطيـــور – فكان لا يقربه عصفور – ولا حمام ولا يمام ولا شيء مـــن أنـــواع الطيور.

ويعد الجامع الأزهر من أشهر جوامع العالم الإسلامي، وقـــد احتفظ صحنه بالشكل المربع الذي رآه عليه المعز عام **973** م عندما دخله حاملاً رفات أجداده، وصلى عليهم فيه ثم اتجـــه إلى قصـــره يسبقه موكب من حرسه وأربعة من أبنائه وفيلان. وعلى مر الزمان تغيرت هيئة الجامع حتى وصلت لما هي عليه الآن. لقد عمد الكـــثير من الملوك (خاصة الفاطميون منهم) إلى توسيعه وإثرائه بالهبـــات أو بالإضافات المعمارية.

يقول "فولكف": نحن نجهل متي تمت تعلية سقفه المـــنخفض، لكن يحتمل أن العزيز نزار (**976 –996**) هـــو الـــذي أضـــاف الإيوانين الجانبيين (الشمالي والجنوبي) اللذين ضما ثلاثة بوائك على كل جانب وأدخل الحـــاكم بـــأمر الله (**996 – 1020** م) عليـــه تحسينات في هذا العهد وقد بني الجامع مـــن القرميـــد وخصصـــت جدرانه التي تركت في بعض المواضع عارية من الزخرفة، وفي مواضع أخرى حفرت الزخارف، وتحمل عقود الجامع أعمدة رشيقة جلبت من عمائر أخري.

وقد لعب الأزهر دوراً مهما في السياسة والدعاية الفاطميـــة بسبب نشاطه التعليمي. ولذا قاسى أثناء حركة "العودة إلى المذهب السني" أثناء حكم الأسرة الأيوبية التي حكمت مصر في عام **1171** – فتعرضت للإهمال مبانيه وانتزع صلاح الدين بعض زخارفه مثـــل الطوق الفضي الذي كان يزين محرابه ومنع فيه الخطبة واقتصـــرت صلاة الجمعة في القاهرة على جامع الحاكم. لكن الحال تغـــيرت في حكم المماليك، فقد ساء الأمير أيدمر الحلي الـــذي كـــان يســـكن بالقرب منه ما آل إليه الجامع، فقرر إصلاحه على نفقته بمســـاعدة السلطان الظاهر بيبرس الذي سمح بإعادة الخطبة إليه. وبين عـــامي **1302 – 1303**م أصيب الجامع بأضرار نتيجة لزلزال وأصـــلحه الأمير سلار.

وفي القرن الرابع عشر الميلادي أصلح الجـامع واسـتخدم الرخام بقدر ضئيل في محراب، لكن هذا الإصلاح لم يؤرخ على وجه التحديد. أما محاريب المدارس الـثلاث الـتي أنشـئت في العصـر المملوكي خارجه ثم ألحقت به فقد جلدت بالرخام على نحـو رائـع وهي مدرسة "الأمير طيرس" وبنيـت عـامي **1309 – 1310**م، ومدرسة "الأمير اقبعا عبد الواحد" بين عـامي **1339 – 1340**م، والمدرسة التي شيدها الحصن جوهر القنقبائي ودفن بهـا (**1440 – 1441**م) ثم حدث أن مالت إحدى المآذن على نحو خطير فهـدمت وأعيد بناؤها ثلاث مرات (**1397 – 1398/ 1414 – 1415/ 1423 – 1424** م) وفي عام **1423 – 1424**م بـني صـهريج وسط الصحن به ميضأة. وقد فشلت محاولة لزرع أربعة أشجار فيه، واهتم بعمارته السلطان قايتباي، فأعاد تشييد الباب البحري علـى نحو بديع وأضاف إليه مئذنة قايتباي، وأمر بإصلاحه إصلاحا شاملا، ثم أقام السلطان الغوري مئذنة من طـراز فريـد عـام **1510** م، وازدادت مساحة الجامع مرة أخرى في القرن السابع عشر وأصـبح الجامعة الوحيدة للدراسات الدينية في مصر.

(8)

الجنود الموثوق بهم اقتسموا حارات القاهرة والمشكوك فيهم خارجها

كان مجيء "المعز لدين الله الفاطمي" إلى القاهرة عام 972 م. وبعد أن دخل قصره، خر لله ساجدا وصلى متبوعاً بأعوانه، ثم أنزل أولاده وحريمه وخدمه بالقصر، وفي منتصف شهر رمضان الذي لم يكن بعيدا جلس المعز على عرش من الذهب نصبه له جوهر في الإيوان الجديد. واستقبل الأشراف (أحفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم) والولاة والنبلاء.

وفي حضرته كان الكل وقوفا وقد انقسموا إلى مجموعات صغيرة تقدمت الواحدة منهم بعد الأخرى إلى الخليفة، بينما قائد القواد جوهر يعرض عليه الهدايا التي اشتملت على مائة وخمسين فرسا مطهمة كل واحد مطهم بألجمة من ذهب، ثم دخل الخدم حاملين واحداً وثلاثين هودجا مفروشا ومطرزا بالقصب، ثم قدم ثلاثة وثلاثين بغلا مسرجة ومائة وثلاثين بغلا مخصصة للحمل وتسعين جملاً ثم أربعة صناديق مشبكة تبدو منها أوان ذهبية وفضية. ثم مائة سيف

دمشقي من الذهب والفضة وصناديق بالفضة مليئة بالأحجار الكريمة وأخيرا تسعمائة سلة مملوءة بكل ما أمكن تدبيره له من كنوز مصر.

وعندما بنى جوهر الصقلي "القاهرة" بنى القصر الذي اتخذه المعز لدين الله الفاطمي مقرا له أولا ثم قسم القاهرة إلى أحياء ومساكن توزعت على الجنود واختلف بذلك عن الذين سبقوه إذ بنوا أولا الجامع ثم توزعت الأحياء والمناطق علي هذه الأحياء، لكن القاهرة ستعتز بعد ذلك بجامعها الأزهر الذي بناه المعز لدين الله وظل رغم تضارب أقوال المؤرخين حول تسمية الجامع الأزهر بهذا الاسم، يقول ابن اياس: "سمي بالأزهر لزهارته بين الجوامع "، وفي رأي آخر أن الاسم مشتق من لفظ "الزهراء" لقب السيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي سميت باسمها مقصورة أقيمت به، ويرجع فريق ثالث هذه التسمية نسبة إلى القصور الزاهرة التي بنيت حينما أنشئت القاهرة.. بينما يرى البعض الآخر أنه سمي كذلك تفاؤلاً بما سيكون له من الشأن والمكانة في ازدهار العلوم منه.

وقد جدد في مبانيه عدة مرات، وأضيفت إليه زيادات كثيرة في حقب أعقبت العصر الفاطمي.. ومن المعالم البارزة في عمارة الجامع الأزهر مئذنتان رشيقتان: إحداهما للسلطان قايتباي، وتقع على يسار الداخل من الباب الموصل لصحن الجامع الحالي، والثانية على يمين الداخل من نفس الباب وهي ضخمة تعتبر فريدة بين مآذن

العصر حيث تنتهي برأسين بدلا من واحدة، وقد بناهـا السـلطان قنصوه الغوري آخر سلاطين المماليك عام 915هـ – 1510م.

ونفذ عبد الرحمن كتخذا أو كخيا (الذي مات في 1776 م ودفن في جامع الأزهر) أعمالاً عدة فيه مثل بناء محراب وإقامة منبر جديد وصهريج ومدرسة للأطفال، كما نفذ كل من الخديو توفيـق وعباس حلمي الثاني ترميمات، فهدمت مئذنة عبد الرحمن كتخـذا وأقيم مكانها الرواق العباسي الذي افتتح عام 1898 م.

وفي عام 1930م تفرعت من الجامع ثلاث كليات للتعلـيم العالي اتخذت لها مقاراً منفصلة في القاهرة، لكنها سرعان ما انتقلت إلى مبان حديثة شيدت خلفه وصار الطلاب يجلسون على مقاعد في فصول، وقد زودت تلك المنشآت بمعامل لإجراء التجارب العلمية.

وبين عامي 1935 – 1936م شيد مبنى الخدمات العامـة بميدان الأزهر إلى شمال الجامع.. أما في الناحية القبلية فقد أقيمـت ثلاثة مبان أخرى للتعليم الأزهري الابتدائي والثانوي وللخـدمات الصحية مزودة بمستشفى.. وفي عام 1950 وعلى الناحية القبليـة أيضا افتتحت جامعة ذات أربعة آلاف غرفة ومئذنة عالية. وافتتحت أيضا كلية (الشريعة) وبنيت كلية اللغة العربيـة في عـام 1951م وهدمت المنازل القديمة في الجانب الشرقي لبناء كلية أصول الدين.

وتوجد مكتبة الأزهر التي تضم بين كتبها عشرين ألف مخطوطا في داخل المدرسة الأقبغاوية. وقد بنيت مدينة جامعية لإيواء الطلبة الأجانب في ميدان "الغفير" سابقا في العباسية.

أخذ الجامع الأزهر مكانته العلمية والدينية بعد أن تحول في عهد العزيز ابن المعز إلى جامعة تدرس فيها العلوم ويدعى فيها للمذهب الفاطمي، وكان أول درس ألقي بالجامع الأزهر في شهر صفر سنة **365** هـ – **975** م. وكانت له فوق ذلك أهمية رسمية خاصة، ففيه كان جلوس قاضي القضاة ومركز المحتسب العام، كما تعقد كثير من المجالس الخلافية والقضائية.

ومن المواقف الخالدة للأزهر في العصر الحديث ذلك الدور الذي قام به إبان الحملة الفرنسية على مصر عام **1798**م فقد تزعم رجاله الحركة الوطنية التي أدت في النهاية إلى خروج الحملة الفرنسية من مصر ثم عزل الوالي العثماني وولي محمد علي حكم مصر.

يقول الباحث الفرنسي "اولج فولكف" في كتابه (القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة): "وكما كانت الفسطاط مقسمة إلى خطط، قسمت القاهرة كذلك إلى حارات. لكن تلك الأقسام لم تكن موزعة على القبائل العربية المختلفة بل على قبائل وأجناس أجنبية متباعدة. ولذا نسمع عن حارات الروم والكرد والبربر والترك، وحارة

برجوان وحارة الأمرا. ولم يسمح إلا للجند الموثوق تماما بإخلاصهم في الإقامة داخل أسوار القاهرة، أما الآخرون فقد أقــاموا خــارج الأسوار. وكانوا جميعاً أشبه بحرس إمبراطوري، وقد وطن جوهر عن عمد الروم بني جلدته الأماكن المجاورة لأبواب المدينة ووزعت باقي فرق الجند في مناطق مختلفة. فقد وطن جوهر الجنود الزنوج (وعرفوا اختصارا بالعبيد) واشتهروا بعدم الانضباط في المنطقــة الواقعــة إلى شمال باب الفتوح، خارج أسوار المدينة بالقرب من الخندق الــذي حفره لوقاية المدينة من أي هجمة تأتي من سوريا. ولذا عرفت تلك المنطقة "بخندق العبيد"، وقد آوت ضواحي القاهرة الجنــود الجــدد الذين وصلوا بعد تقسيم أراضي المدينة.

وتعكس المساحات الواسعة من الأرض الفضاء التي تركــت بين المباني رغبة جوهر الأساسية من بناء القاهرة؛ فقد تحتم أن يكون في تلك المدينة عاصمة الخلافة، أماكن واسعة يمكن فيها إشباع رغبة الخليفة في الظهور بمواكب وإقامة احتفالات باهرة.

وكمعطف فاخر يتدلى ذيله في الوحل، امتدت مدينة الخلفاء الرائعة إلى الجنوب على جانبي الشارع الأعظم الذي كان يؤدي إلى جامع ابن طولون مكونة أحياءً مزدحمة شــوارعها ضــيقة يصــعب الوصول إليها. وقد انقسمت إلى ثماني حارات عسكرية أسكنها الجند

وأغلبهم من السودانيين الذين كونوا إلى الشمال والشرق من بركة الفيل حيا من خمسين ألف نسمة.

أسوار وقصور جديدة

بعد أن تلاشى الخوف من ثورة أو غزو، فقدت الأسوار معناها وبدأ طوفان من المنازل يغمرها رويداً رويداً حتى أن ناصر خسرو الـــذي زار المدينة بعد خمسين عاما من تشييدها عجز أن يميز أسوارها لكثرة المباني التي تكتنفها على الجانبين. وقد ذكر المقريزي في القرن الخامس عشر الميلادي أن آخر أثر لتلك الأسوار تلاشى تماما. ومن ناحيـــة أخرى ضاقت المدينة بسكانها بمرور الوقت مما اضـــطرهم للزحـــف خارج أسوارها. ولما كان الخلفاء زاهدين في التضحية بقصورهم أو بميادينهم فقد اضطروا لتوسيع نطاق المدينة حتى يحفظوا لها وحدتها. فعندما بنى الحاكم بأمر الله جامعه خارج أسوار المدينـــة، هـــدمت الأسوار وأعيد بناؤها بحيث أدخل الجامع في نطاق المدينة.

وفيما بعد يعيد بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصـــر، بنـــاء الأسوار مرة أخرى لتوسيع المدينة، بيد أن الحائط الشمالي الشـــرقي للمدينة، الذي كانت تفصله عن الخليج منطقة بـــين الســـورين، لم

يتعرض لتغيير، لكن النبلاء والأغنياء شيدوا لهم هناك قصوراً وفيلات. أما الأرض الفضاء فاستغلها البسطاء لإقامة احتفالاتهم.

وبنى المعز من جديد أرصفة بميناء المقس الواقع إلى شمال الفسطاط والروضة، وظل المقس الميناء الرئيسي وداراً لصناعة السفن حتى غير النيل مجراه بعد ظهور بولاق. وبالقرب من باب البحر شيد الحاكم بأمر الله مسجداً. وبعد ان ظهر الخليج وصار صالحا للاستعمال بين الفسطاط وعين شمس ازداد عمران المقس تدريجيا حتى أصبح جزءاً من القاهرة.

ويروي ناصر خسرو فيقول: قصر الخليفة كان مشيدا في الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة. وكان يرى من بعد على أنه كالجبل نظرا لضخامته وارتفاع مبانيه. وقد بني في عام **972** م على مكان "بستان كافور" و"دير العظيم" و"قصر الشوك" وعرف "بالقصر الكبير". وكان يضم حجرات واسعة للخليفة وأسرته ومخازن للأثاث ومطابخ ومصالح حكومية ومخازن تعج بالغلال والسكر والزيت والصابون والشمع والمعادن. وفيما بعد أقام العزيز ابن المعز قصراً (القصر الصغير الغربي) على الجانب الآخر "لقصبة القاهرة" وخصصه لابنته ست الملك وقد أكمله الخليفة المستنصر عام **1805** وكان ظهر البناء يطل على الخليج. وعلى جانبي الواجهة الشرقية امتد جناحان للبناء مما جعل القصر يشبه في مخططه حدوة

الحصان التي يمتد فرعاها تجاه القصر الكبير. وبين القصرين امتد ميدان عظيم عرف بـ"رحبة بين القصرين" وكانت قصبة القاهرة تخترقه، وموقعه يمكن تحديده في المنطقة المحصورة حاليا بين جامع الحسين وخان الخليلي ومارستان قلاوون. أسواق القاهرة وفي وصف الرحالة لأسواق القاهرة قالوا: "إنها مزدحمة يختلط فيها القبطي والعربي والسوري والتركي والزنجي والمغربي والحبشي والفارسي والهندي واليوناني والأوروبي.. الكل يعدو ويتدافع بالمناكب لإنهاء أعماله، وتقع الدكاكين على جانبي الطريق، ويتراوح ارتفاعها من أربعة إلى خمسة أمتار ويتم عرض المنتجات على الأرض.

خان الخليلي

ويعتبر خان الخليلي الذي أنشأه الأمير جيهاركس من أشهر الأسواق وهو يحوي مختلف البضائع الجميلة والثمينة، ولكن الباحث "جوبينو" قال أنه لم يشعر بمتعة الشراء في أسواق القاهرة نظرا لصغر حجم المحلات، حتى أننا لا نستطيع أن نتنفس بداخلها. وعدد المؤرخ (فرومونتان) أنواع البضائع المختلفة في الأسواق مثل المسك ومنتجات السودان المختلفة والعطور والبلسم والعقاقير والسجاجيد والأقمشة.. ورأى الرحالة "اكزا" أن أسواق القاهرة أكثر جمالا من

أسواق إستانبول فهي تحوي منتجات آسيا وأوروبا وأفريقيا والهند والجزيرة العربية.

وفي (مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر) تشير د. إلهام ذهني إلى أن من أشهر الأسواق التي ورد ذكرها "الموسكي"، فهو شارع حيوي يقطنه التجار من مختلف الجنسيات، لهم محلات صغيرة، تعرض فيها كل المنتجات الشرقية والأوروبية، وترد الأقمشة والملابس من دمشق، وريش النعام والعاج من السودان، والبهار من الهند، ويزدحم سوق الموسكي بالمارة.. وقد تمت زراعة مجموعة من الأشجار على جانبي الطريق لكي تعطي ظلا جميلا لرواد المنطقة، وقام السكان بالتغلب على مشكلة الأتربة، فحرص السقاءون على رش الشوارع بالمياه غير أن هذه الأتربة تتحول إلى طين فيصعب السير في السوق، ويصبح المكان وكأنه تعرض للأمطار الصناعية – على حد قول دي جارسي – وتتجول في الموسكي عربات تجرها الخيول لها طابع فرنسي رغم الزحام إلا أن السير والتجول في السوق يعتبر أمرا مسليا للغاية، كذلك الجلوس على موائد المحلات وتجاذب الحديث مع التجار، ويتسم المصريون بالكرم والحفاوة فكلما سرنا في الطريق دعانا التجار لتناول القهوة العربية، فكنا نضطر للتوقف أمام كل محل لكي نتلقى عبارات الترحيب وكأننا في البلاط الملكي".

وقد تجمع الأوروبيون في الموسكي لأهميته كسوق تجاري وافتتح الكثيرون المحلات لصنع الأثاث وتصديره إلى إيطاليا، خاصة البندقية، كما افتتحوا ورشاً لصناعة المناضد المطعمة بالنحاس والصدف والعاج. وافتتح البعض الآخر محلات لبيع اللحوم المدخنة، وأخرى لبيع الحرير الذي يتم استيراده من بروسيا، والبروكار الذي يستورد من دمشق، ومحلات للفواكه والأسلحة والعطور.. وافتتح الأوروبيون أيضا المكتبات ومحلات لبيع الساعات.

وأوضح "جيرار" أن هناك تنافسا كبيرا بين التجار الأوروبيين حول تجارة الأقمشة وترويجها في مصر، وأن سوق الموسكي يشهد جانبا كبيرا من هذا التنافس فتعرض فيه الأقمشة المصنوعة في ألمانيا وفرنسا ومارسيليا، والموسلين المستورد من الأستانة.

ولا تقتصر أسواق القاهرة على الموسكي فقط، وإنما توجد أسواق أخرى تخصصت في بيع الأقمشة مثل سوق الحمزاوي والأسلحة في سوق السلاح، والبن في الجمالية، والعطارة في البكنية، والنحاس في حي النحاسين، فالقاهرة غنية بتجارتها وأسواقها العامرة، ومنذ نشأتها وتجارتها لا تنقطع مع العرب والشرق والهند والبحر الأحمر.

وتكثر المقاهي في القاهرة وقدر الكاتبان "بـــريس دافـــين" و"ادوار ولين" عددها بنحو ألف مقهى، والمقهى يتكون من حجـــرة صغيرة تكون واجهتها على الشارع ومصنوعة من الخشب المفتـــوح وتمتد على طول الواجهة ما عدا الباب، وتوجد مصطبة من الحجر أو الآجر يبلغ ارتفاعها نحو قدمين، وتغطى الأرضية بالحصر وتتم إضافة مقاعد مشابهة داخل المقهى، وتشهد المقاهي ازدحاما كبيرا بعد الظهر وفي المساء وروادها من الطبقات الدنيا والتجار يفضلون الجلـــوس على المصطبة الخارجية، ويحمل رواد المقاهي تبغهم ويتولى القهوجي تقديم القهوة لهم.

وقدم "مونتوليه" وصفا للشيشة بقوله إنها وعاء زجاجي يملأ نصفه بالماء وتخرج منه انبوبة أو خرطوم طولها من **16** إلى**19** قـــدماً وتوضع عند رأس الوعاء قطعتان من الفحم وعليها الطباق المستورد من مكة، ولكن الاستنشاق الطويل يضر الرئتين على المدي البعيـــد. وفي المقاهي يتم سرد الروايات والقصص والتي يقاطعها المســـتمعون بين لحظة وأخرى بصيحات التعجب. ويوجد في القاهرة عدد مـــن المقاهي الشهيرة يحرص على ارتيادها زائرو القاهرة مـــن الســـياح والعرب مثل مقهى الفيشاوي بحي الحسين، ومقهى علي بابا الـــذي يرتاده الروائي الكبير نجيب محفوظ.

(9)

ألف تمثال من السكر تزين مائدة الخليفة وتسعة أبواب للقصر الكبير

كان ثراء القاهرة وازدهارها وعمرانها، علامـــة بـــارزة ومميزة عليها منذ بداية إنشائها في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الفاطمي، ويبدو هذا الثـــراء في قصـــور الخلافة وأعياد واحتفالات أهل القاهرة، وأيضا في الموائد العامرة بالطعام والحلوى،

ولعل تزيين القصور وبواباتها بالذهب الخالص أو المطعم بالأحجـــار الكريمة بل وانتشار ظاهرة العمائم المطرزة بالذهب والسروج المطعمة بالذهب والأسلحة المكسية برقائق الذهب في عهد الخليفة لعلامـــة بارزة على الثراء الذي لم يقتصر على القصور بل امتد لكل أرجـــاء العاصمة وما حولها.

أخذت العمائر ترتفع حول القصرين الأساسيين فشيد العزيز ابن الخليفة المعز "قصر الذهب" و"الديوان الكبير" و"قصر اللؤلـــؤ" وأضاف الخلفاء الآخرون والوزراء مبان أخرى كثيرة أو أصـــلحوا القائم منها حتى جعلوا في النهاية عشرة عرف كل واحد منها باسم

خاص مثل "قصر الغزال" و"قصر المظفر" الخ. وكان القصر يضم قاعات كثيرة بالإضافة إلى حوض ماء لمقاومة أي حريق محتمل"..

ويضيف الباحث الفرنسي "أولج فولكف" قائلاً: "أخذت القصور الزاهرة، كما كانت تعرف تلك المجموعة، في الاتساع حتى إنها كانت تأوي في القرن الحادي عشر اثني عشر ألفاً من الخدم معظمهم من السود أو الروم، أما حريم القصر فقد ضم ثلاثين ألفاً من النساء والخصيان.

ويروي المقريزي أن صلاح الدين وجد في القصر عندما أخرج منه العاضد آخر خلفاء الفاطميين إثنتي عشر ألف امرأة من الجواري. أما من الرجال فلم يكن سوى الخليفة وأقربائه وأولاده. ويقول المقريزي: "كان بالقصر الكبير الشرقي تسع بوابات، تعلو إحداها منظرة يظهر الخليفة في شرفاتها عند الاحتفال بمواسم معينة. أما أسماء الأبواب الأخرى فتذكرنا بقصص ألف ليلة وليلة "باب الزمرد" أو "باب السلام" و"باب الفتوح" الخ .. وكان بالقرب من القصر بئر يدعى "بئر الصنم" تلقى فيه أجساد من يأمر الخليفة بإعدامهم. وقد قيل إن به كنزاً مخبوءاً. وعندما صار صلاح الدين سلطاناً على مصر بعد قرنين من الزمان أمر بحفر قاع البئر، وفي النهاية أمر بردمه وربطت القصور سراديب محفورة تحت سطح الأرض معدة لانتقال الخليفة من قصر لآخر. ويقول المقريزي إن

الخليفة كان يمتطي البغال أو الحمير التي كانت الجواري تقودها عبر تلك السراديب.

وفي كتاب (القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة) لمؤلفه "فولكف" إضاءة شاملة للقصور التي بنيت في القاهرة فقد كان قصر الخليفة يضم "الإسطبل الدائري" وقد كان مخصصا للخيل التي يمتطيها الخليفة، وجامع الأزهر الذي كان يؤدي فيه الخليفة صلاة الجمعة بنفسه و"ميدان العيد" حيث كانت تتجمع فرق الجيش أيام الأعياد الكبرى كعيد الفطر أو الأضحى، وهناك يداعب الهواء ريش عمائمها ويخطف بريق جواهرها الأبصار وتختال خيولها على وقع خطواتها. وهناك أيضا كان من الممكن رؤية باب تربة الزعفران، وهي مقصورة خصصت للخليفة وزوجاته وأطفاله، والأبواب السبع الخلفية للقصر التي كان الخليفة يخرج منها قاصداً الجامع الأزهر في ليلتي الوقود. وعلى مقربة من هذا المكان كان يقع بيت العلم وخزانة السلاح، وعلى الجانب الآخر لميدان العيد شيد "بيت الضيافة" و"خان الوزراء" و"إسطبل الجمال".

حلوى الخليفة

بني أمام بيت الزهور ما سمي بـــ "روائح الطعام" حيث المطابخ الـــتي كانت تمد مائدة الخليفة بالطعام. أما حلوى الخليفة فكانت تصنع في دار الحلوى، واختصت بالتوابل دار خاصة (دار التوابـــل) وعنـــد الانتهاء من إعداد الطعام للخليفة وحريمه والعاملين بقصـــره كـــان يرسل عبر باب الزهومة ومن هذا اشتق الباب اسمه.

وقد ذكرنا الرحالة ناصري خسرو أن الباب كان يؤدي إلى ممر سفلي يربط بين القصر والمطابخ (وهو أمر ليس ببعيد إذا إن من الصعب تخيل أن طعام الخليفة ينقل في الهواء الطلق معرضا للتراب). وكان بالقصر ممرات سفلية أخرى تقود إلى الخارج، وكما نعلم فقد عبرها جثث ثلاثة من الخلفاء..

ويقول خسرو عن مطابخ القصر أنه كان من المعتاد أن يرسل للخليفة أربعة عشر حمل جمل من الثلج كل يـــوم. وكـــان معظـــم الموظفين الكبار والنبلاء يتسلمون أنصبة معينة من الطعام وكذا كل من يطلب من أهل المدينة من أجل مريض وكان القصر يفرق علـــى كل راغب مشروبات ومراهم مثل زيت البلسم، ولم يكن يرد سائلاً أبداً.

كان ثراء تلك القصور خرافياً، ففي قصر الـذهب كانـت توجد قاعتان "قاعة الذهب" و"قاعة الفضة" الأولى كانـت قاعـة العرش والثانية قاعة المقابلات. وقد كسيت الجدران بالـذهب أمـا العرش فطُعم بالأحجار الكريمة ووضع على منصة مذهبة، وأحاطت أجمات من نخيل من ذهب مثقل بفواكه وأزهار من الأحجار الكريمة وبه طيور من ذهب ومزخرفة بمينا متنوعة الألوان يسمع لها تغريد.

ويصف الرحالة خسرو القصر فيقول: "عندما دخلت مـن باب القصر رأيت حشداً من العمائر والقاعات لو وصفته لتضـخم كتابي. كان هناك اثنا عشر جوسقاً مربع الشكل متصـلة ببعضـها مساحة الواحد منها مائة أرش (أربعين متراً) مربعا عدا واحداً منـها كانت مساحته فقط **60** أرشاً مربعاً (**24** مترا). وفي هذا الأخـير وضع عرش وثلاث من أوجهه كسيت بالذهب وعليها مثلث مناظر صيد وفرسان يرمحون بجيادهم ومواضيع أخرى.. وأحـاط العـرش سياج مشعر من الذهب يعجز البيان عن وصفه، وكانـت هنـاك درجات من الفضة خلف العرش ملاصقة للحـائط. وإذا أردنـا أن نوفي هذا العرش الرائع حقه من الوصف، فلن يكفيه كتاب واحـد. وقد قيل لي إن راتب مائدة الخليفة من السكر كان خمسين ألف مين "المين يساوي **1.5264** كجم" وقد رأيت هناك شجرة تحاكي شجر

البرتقال فاكهتها وأوراقها من السكر وكانت المائدة تزين بألف تمثال صغير من السكر أيضا.

يقول ابن إياس في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الـــدهور): "كان الخلفاء يحكمون من مصر إلى الفرات وإلى مكـــة والمدينـــة – وكانت مصر وبلاد المغرب مملكة واحدة – وكان خلفاء بني العباسي يحكمون من الفرات إلى بغداد – وسائر بلاد الشرق".

ويؤكد ابن إياس أنه بعد موت جوهر الصقلي، وجد عنـــده ذهب وأموال كثيرة. وقد نسجت حول ذهب المعز وقائده الصقلي العديد من الأساطير ومنها ما عرف بباب الذهب والباب الرئيســـي للقصر الكبير كما لو كان باباً يؤدي إلى مملكة ساحرة، فعندما عـــاد المعز من المغرب قاصداً مصر، جمع كنوزه وصهرها وصبها في هيئـــة أحجار طواحين ثم حملها على مائة جمل، وفي قول آخر مائة وخمسين لينقلها إلى مصر.. يقول "فولكف": "وقد وضعت الســـبائك فـــوق بعضها البعض حتى كونت عوارض الباب الذي سمي باب الـــذهب. وقد تولى العزيز بالله أبو المنصور ابن المعز لدين الله، الخلافة، وفي عام **1054** م وتسبب فيضان شحيح للنيل في حدوث مجاعة. فـــارتفع سعر القمح إلى ثماني دنانير تقريباً للأردب الصغير مما أدى إلى نـــدرة متزايدة في الخبز، فأشفق الخليفة العزيز بالله على الفقراء أن يموتـــوا جوعاً فصرح لهم بأن ينتزعوا بأزاميلهم شقفاً من المعدن الثمين الذي

ألف عارضي باب القصر فاختفى الجزء الأكبر من العارضين في لمح البصر. فاضطر السلطان لنقل الباقي إلى داخل القصر ولا يعلم أحد مصير هذا الجزء.. ومحاولة حصر الثروات التي ضمتها يوماً تلك القصور أمر لا يثير خيال المرء فحسب بل يملأ النفس بدهشة جديدة، فما الذي يمكن للمرء أن يصنعه بإثنى عشر ألف رداء (كما قيل) من مختلف الألوان وبمئات الصناديق المملوءة.. ولقد تركت ابنة المعز رشيدة التي ماتت في عام **1050** م ثروة قدرت بمليونين وسبعمائة ألف دينار.

تعددت الأعياد التي أضفت البهجة على حياة أهل القاهرة في العصور الوسطي، ففي يوم عرفات على سبيل المثال كان المعز يجهز (كسوة) للكعبة المشرفة في مكة المكرمة وكانت تزينها خمسون لؤلؤة كل منها بحجم بيضة الحمامة، وكانت الكتابات القرآنية عليها من اللؤلؤ أيضاً وقد شكلت بالزمرد. وقد قيل إنها حوت ثلاثين ألف مثقالاً من الذهب وعشرين ألف درهم من الفضة وستمائة وثلاثة آلاف جوهرة متنوعة الألوان.. وفي أول أيام عيد الفطر كان الخليفة يخرج على صهوة جواده إلى مصلى في الهواء الطلق متبوعاً بموكب.. وبعد انتهاء الصلاة يعود إلى قصره ويتوقف عند باب القاعة حتى يخلع عنه الوزير ثوب العيد ويلبسه ثوبا آخر. وفي هذا الوقت يكون قد تم نصب العرش في قاعة المائدة، وتوضع أمامه مائدة من الفضة

وعليها أوان من نفس المعدن وأخرى من الذهب أو الصيني مملـوءة بأطعمة مختلفة.

وكانت تمتد بطول القاعة مائدة ضخمة من خشب مصقول أشبه بمنصة منخفضة تغطيها الأزهار وبطولها امتد صفان من أرغفـة الخبز الدائري الأبيض. أما القسم الأوسط من المائدة فقد امتد على طوله واحد وعشرون طبقاً مستديراً ومستطيلاً حوت خرافاً محمـرة ساخنة محاطة بدجاجات وطيور أخرى وعلى جانبي تلك الأكوام من الأطعمة امتد حائطان من المربى المجففة قطعت إلى شـرائح عريضـة تلتمع بألوان عديدة. وبين الأطباق وضع خمسمائة طبق صغير مـن الفاينس بكل منها سبع دجاجات محشوة بالخلطة فضلاً عن اللحـم المفروم جيد الإعداد. وعند الفراغ من تناول الطعام، يُأتى بالحلوى، وكانت في هيئة قصرين كل منهما يزن سبعة عشر قنطاراً محمولـة على محفات وكانت مغطاة بأوراق الذهب ومزينة بنقوش بارزة.

يقول فولكف: "وبمجرد أن يجلس الخليفة على العرش كـان الوزير يتخذ مجلسه على يمينه، وعلى جانبيهما يقـف أربعـة مـن السياس وأربعة من الخدم الخصوصيين وعندئذ يجلس الأمراء وعلية القوم إلى المائدة دونما أي ترتيب مسبق ثم تبدأ المأدبة".

ومن الأعياد الأخرى في ذلك الوقت عيد "قطع الخليج"، وفي هذا اليوم تكون فرق جيش الخليفة كلها على أتم استعداد "وتتوزع في فرق وفصائل منفصلة. ويمكن للمرء أن يميز بينهم عشرين ألفاً من فرسان القطامية الذين كانوا قد أتوا مع المعز، والباطلية وهم قوم من المغرب كانوا قد حضروا إلى مصر قبل أن يغزوها المعز" والمصمودية "وهم من السود جميعاً، أما الترك والفرس فكانوا يسمون بالمشارقة وهم حسنو الهيئة، وحولهم يصطف عبيد الشراء (أي المشترون) وبدو الحجاز وعدهم خمسون ألف رجل كلهم مسلحون بالرماح ثم يأتي السرايا (أو خدم القصر) ثم المشاة وقد جاءوا من مختلف البلاد ويخضعون لرئيس يتولى رعايتهم وإعاشتهم، وكل منهم يقاتل بالسلاح الذي اعتاد عليه في بلاده ثم يأتي العبيد السود أو البيض، ثم الزنوج وعددهم ثلاثون ألفاً مسلحون بالسيوف.

وكانت هناك فرقة خاصة مستقلة عن الجيش تتألف من أبناء الملوك والحكام الأجانب الذين أرسلوا إلى مصر، يلمح المرء منهم أمراء من اليمن أو من بلاد الروم أو السلاف أو النوبيين أو الأثيوبيين أو أبناء أمراء جورجيا، وكانت نفقة تلك الفرقة عظيمة بينما انحصرت واجبات أفرادها في حضرة الوزير من وقت لآخر، وكذلك في المناسبات التي يقدم فيها الولاء إلى الخليفة ووزرائه.

ويروي "فولكف" أنه في عهد الخليفة العزيز تمتعت القاهرة بدرجة من الثراء يصعب تصديقه، وكثيراً ما عبر العزيز عن رغبته المتقدة في إسعاد رعاياه، وكان مولعاً بالترف فقد شيد عدة عمائر زادت من جمال القاهرة. وينسب إليه "قصر الذهب" و"قصر اللؤلؤ"، وهما أبدع قصور المدينة. وفي عهده أيضاً كانت العمائم تشكل من أقمشة ثقيلة متعددة الألوان ومطرزة بالذهب تدعى "دابق؛ نسبة للمدينة التي كانت تصنعها وبعض منها كان يصل طوله إلى مائة ذراع. وفي هذا العصر أيضا شاع استخدام السروج المذهبة المطعمة بالأحجار الكريمة والمعطرة بالعنبر وكانت الأسلحة أيضاً تكسى برقائق الذهب.

(10)

مات العزيز فاكتشفوا وجود الخليفة الجديد مختبئا في شجرة تين!

امتد ثراء القاهرة من عهد إلى عهد، ورغم ما شاب عهد الحاكم بأمر الله من تناقض وقسوة في الأحكام إلا أن العمران امتد في المساجد الجامعة التي بناها وفي دار العلم والحكمة والمكتبة التي ازدانت بملايين الكتب وآلاف المخطوطات، وقد عكس النهضة نفسها في الأسواق والصناعات والحرف وبناء أسبلة الماء العذب ليشرب منها العامة.

امتدت حالة الثراء في عهد الخليفة العزيز الذي تولى عرش البلاد في سنة **975**م ، فتم تشييد الحمامات بالقاهرة ، وكانت الأسواق تعرض أسماكاً طازجة.. يقول ابن إياس: "في أيام العزيز ظهر السمك اللبيس ببحر النيل ولم يكن قبل ذلك – وهو من أسماك البحر المالح ودخل البحر الحلو – فسمي لبيسا" كما أغرقت الأسواق بنبات الكمأة الذي كان يجلب من المقطم حتى صار يباع بدرهم لثمانية أرطال. وربيت في القاهرة سلالة من الخيل سوداء ذات أرجل بيضاء

كانت غير معروفة من قبل في المدينة، ولأول مرة في هـــذا العصـــر استقدمت إلى مصر إناث أفيال، وكان النوبيون حتى هـــذا العصـــر يمنعون تصديرها إلى مصر حتى لا تتكاثر وتســـتخدم كســـلاح في معركة مستقبلة ضدهم وضد أي بلد مجاور، وشهد ذلـــك العصـــر محاولة لاستجلاب وحيد القرن، لكنه مات في الطريق وكان علـــى أهل القاهرة الاكتفاء بمشاهدة جلده محشوا فقط.

ومن عجائب عصر العزيز التي أوردها ابن إياس في "وقـــائع الدهور": "ولدت امرأة بمدينة تنيس – جارية لها رأسان ووجهان في عنق واحد وكان أحد الوجهين أبيض اللون والآخر أسمر وكل وجه منهما كامل الخلقة – فكانت أم تلك المولودة ترضع كل وجه على انفراده، فحملت هذه المولودة من تنيس إلى مصر حـــتى شـــاهدها العزيز وأمر لأمها بعناية".

الحاكم بأمر الله

فور وفاة العزيز في عام **996**م أخذ الأمير "برجوان" مـــؤدب ابنـــه الحاكم يبحث عن تلميذه، فوجده مختبئاً في شجرة تـــين، فألبســـه برجوان عمامة مزينة بجواهر وعرضه على الناس الـــذين أخـــذوا في الركوع أمام الإمام الجديد، وفي اليوم التالي سار الإمام الفتى البـــالغ

من العمر أحد عشر عاماً خلف الجمل الذي كان يحمل جثمان أبيه. في يده رمح وسيف يعلقه في جرابه.

يقول ابن إياس: كان الحاكم بأمر الله – لا يتصرف في شيء من أمور المملكة إلا برأي الأمير برجوان – وكان معــه كــالمحجور عليه، فما أطاق الحاكم ذلك فندب إلى برجوان من قتلــه وهــو في الحمام.

وقد أثرت نزوات الحاكم الشخصية التي شابت تصرفاته منذ حداثته على حكمه الذي دام 25 عاماً، وقد أدت الصــعاب الــتي واجهها بعد سنوات قليلة من ولايته عندما قتل مؤدبه برجــوان إلى تشويش عقل الخليفة الشاب تماماً، وصار عهده سلسلة طويلة مــن الفظائع والمراسيم الشاذة والقرارات المثيرة للحنق التي فرضها على رعاياه".

ويروي ابن إياس: "فلما قتل برجوان، صفا للحاكم الوقت – وصار يفعل أشياء لا تقع إلا من المجانين – الذين في عقلهم خلل، فمن ذلك أنه منع النساء من الخروج إلى الطرقات ومن التطلع مــن الطاقات، والطلوع إلى الأسطح، ومنع الخفافين من عمل الأخفــاف لهن، ومنع سائر الناس من الدخول إلى الحمامات، فمر يوما بحمــام الذهب فسمع فيها ضجيج النساء، فأمر أن يسد عليهن باب الحمام،

فسدوه عليهن من الوقت والساعة، وهو واقف عليه، فأقمن داخل الحمام حتى متن به.. ثم إنه منع الناس من بيع الزبيب، وأمر بحرق الكروم، ومنع أيضاً بيع العسل الأسود، وزرع الملوخية والقرع.. ويقال أيضاً إنه اطلع يوماً على جماعة يأكلون ملوخية فضربهم بالسياط وطاف بهم في القاهرة، ثم ضرب أعناقهم عند باب زويلة، ومنع الناس من بيع السمك الذي لا قشر له، ثم نهى عن أكل الرطب وزرع الترمس، وأمر بقتل الكلاب، فقتل منهم نحو **30** ألف كلب.

يقول "أولج فولكف": "وصفه بعض المؤرخين بالجنون، لكن شخصيته كانت أقرب إلى الحساسية وعدم الاتزان، وامتزج في شخصه الذكاء والجنون والوحشية والتقوى، وقد خلف مجموعة من العمائر التي ساهمت في نمو القاهرة، ومن أشهرها جامع الحاكم الذي عاش إلى يومنا هذا وقد بدأ في تشييده عام **990** م وفرغ من بنائه **1003** م، لكنه افتتح للصلاة في عام **991** م، وفي تلك المناسبة ذهب إليه الحاكم (وكان حينئذ طفلاً) في موكب كبير بصحبة أبيه، تحميه من وهج الشمس مظلة، بينما سار أبوه دون أن يحجب عنه الشمس شئ، وقد تولى الحاكم مهمة إتمام الجامع، وعلى نسق جامع ابن طولون بُني من القرميد عدا المئذنة من الحجر مثل مئذنة ابن طولون وعانى الجامع من زلزال في عام **1302** لكنه رمم في عهد

السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وقد بنى الحاكم بـأمر الله عـدة مساجد أخرى، وعلى النقيض من نشاطه المعماري تسبب في خراب كثير من المنشآت.

مكتبة القاهرة

كان بناء (دار العلم) في عام **1005** م من أهم أعمال الحاكم بـأمر الله، وكان الهدف الأول من إنشائها نشر العقيدة الشيعية، وإن عني أيضاً بتدريس علوم أخرى، كالنحو والشعر والشريعة والطب وكتابة الموسوعات، وقد بناه في المقس بناءً فاخراً مزوداً بمكتبة عظيمة نقلت إليها كتب من مكتبة القصر، وسمح بالاطلاع فيها لكل راغب في قراءتها أو الرجوع إليها، وكانت رواتب المعلمين تدفع من مال الحاكم، وكان المعهد متكفلاً بتوفير الحبر والورق والأقلام التي قد يحتاجها المرء، وبعد سبع سنوات من تأسيس هذا المعهد دعا الحاكم طوائف علمائه كل طائفة على حدة إليه حيث خلع عليها أثوابا شرفية، وكانت مكتبة القاهرة واحدة من أعظم مكتبات العالم الإسلامي حينذاك وعدت من عجائب الدنيا، وكان تدميرها في عصر المستنصر خسارة لا تعوض لمصر في هذا العهد، احتلت المكتبة أربعين حجرة من القصر الكبير، وكان بها ستمائة ألف ومليون مجلدا في مختلف فروع العلوم والآداب التي كانت معروفة للعرب حينذاك،

وكانت كلها محفوظة في صواوين مغلقة بمفتاح وعليها قوائم بما تحويه من كتب، وعين للمكتبة أمين وناسخون للكتب وخادمون، واشتملت على **2400** نسخة ملونة من القرآن وعلى مخطوطاتها كتبت بيد ابن مقلا وغيره من مشاهير الخطاطين، وحوت أيضاً ثلاثين نسخة من قاموس عربي شهير هو "كتاب العين" للخليل بن أحمد، وعلى عشرين نسخة من تاريخ الطبري، وغيرها من الأعمال النفيسة، وكان بها أيضاً صناديق حفظت فيها أقلام براها (ابن مقلا) و(ابن البواب) وغيرهم من مشاهير الخطاطين، وقد أنشأ القاضي الفاضل معهداً في القاهرة حمل اسمه، ونقل إليه مائة ألف مجلد أتى بها من مكتبة القصر.

ولكن بعد **65** عاما من افتتاح المكتبة بدأ عهد أفولها عندما أخذ الجنود الترك كل الكتب وفاء لرواتبهم المتأخرة والتي كانت بلاشك أقل بكثير من قيمة الكتب، ولم تنج من أيديهم سوى الكتب المحفوظة في القاعات الداخلية قرب مساكن الحريم حيث لم يكن يجرؤ أحد على الدخول هناك.

وفي هذا الوقت أيضاً وبالتحديد في عام **1069** م نهب الغوغاء "دار العلم" وذلك إبان الاضطرابات التي صاحبت سقوط نصر الدولة.

تجمعت فئات الصناع والتجار في أسواق كانت تغلق أبوابها ليلاً ويحرسها حراس يدفع رواتبهم أصحاب الحوانيت في كل منطقة، وكان على من تضطره الظروف إلى التأخر ليلاً معرفة كلمة السر ليتمكن من المرور، وكان لكل مهنة تقريباً سوق خاص بها، إلا أن الخبازين والشوائين وباعة المشروبات وأصحاب المطاعم انتشروا في كل مكان، ففي سوق الحدادين كان المرء يرى الصناع منكفئين على أعمالهم وقد غطاهم سواد الفحم والسناج، وقد أخذ بعضهم يثبت حدوات لحيوانات الجر، وكان يوجد عدد قليل من البياطرة اختصوا بمعالجة الكسور والجروح وتوليد الحيوانات المستأنسة ومعالجة أمراض الحصان، أما الآخرون فتخصصوا في المسبوكات البرونزية والحديدية كالأسلحة والأجراس ومقارع الأبواب والمصابيح، وقد فرض عليهم السلطان كتابة عيار السبيكة المستخدمة على مصنوعاتهم سواء كانت قطعة كاملة أو أجزاء، وعلى هذا كان فم المصباح يحمل سبيكة مختلفة عن جسمه، وكان من يعمد منهم إلى غش السبيكة بإضافة الرصاص أو يهمل كتابة العيار يعاقب، أما صناع المفاتيح فكان عليهم أن يقسموا يمينا فإذا ما ضبطوا يصنعون مفاتيح مقلدة منعوا من ممارسة صناعتهم، وعلى بعد منهم أقام مبيضو النحاس والمرايا حوانيتهم، وفي سوق الصاغة كانت تباع حلي حقيقية إلى جانب أخرى مقلدة، وقد ظهرت تلك الأخيرة منذ القرن الحادي عشر الميلادي، وبذا كان الصائغ يضع إلى جوار

اللآلئ والأحجار الكريمة غالية الثمن حلياً من نحاس مذهب وزجاج مصقول ملون. وكان الحائكون يصنعون الملابس إما بالجملة وإمـــا حسب الطلب وكانوا يزنون القماش الحرير الذي يحضره الزبون ثم يتعهدون بتسليمه ثوباً بمثل هذا الوزن في ظرف أسبوع، وقد تمتـــع الإسكافيون بقدر كبير من الأهمية حيث لم يرتد القباقيب الخشـــبية سوى الفقراء.. أما غيرهم فكانوا يرتدون أحذية الرخيص منها صنع من جلد الحمار، أما الأحذية الغالية فكانت من جلد الزراف، أمـــا جلد الخنزير البري فقد كان محرم الاستخدام في تلـــك الصـــناعة، وعكس الحائكين اشتهر عن الإسكافيين عدم الأمانة والدقة فقد كان بعضهم يحشر بين طبقات الجلد المكونة نعل الحذاء الورق ومزقاً من القماش، وأحياناً كانت تصنع نعال الشباشب من القمـــاش، فقـــد كانت قصاصات القماش الطويلة المستطيلة تجمع بعضها فوق بعض ثم تثنى في طيات صغيرة منتظمة كآلة الأكورديـــون ثم تضـــغط في مكبس، أو عندئذ تثبت بواسطة سيور رفيعة من جلد البقـــر تنفـــذ خلال ثقوب طويلة أحدثت بواسطة مخراز رفيع ســـخن إلى درجـــة البياض.

واعتاد تجار السجاد على بسط بضائعهم في قلـــب الســـوق وتحت أقدام المارة لإثبات جودهّا، وقد تخصص بعـــض الصـــناع في إصلاح الأواني الخزفية والصينية المكسورة وكانت عدهم عبارة عن

ملقاط من النحاس يمسكون القطعة المكسورة بها حيث يضعونها في مكانها ثم يغطونها بلصق من بياض البيض المخلوط مع الجير.

يقول "فولكف": "كانت التجارة تمارس في الأسواق، والسوق هو صفان من الحوانيت على جانبي طريق قد يكون مسقوفا أو مكشوفا، وكانت تلك الحوانيت "دكاكين صغيرة" تفتقر إلى التهوية والضوء الجيد، ويجلس صاحبها على مصطبة مفروشة بالسجاد أو الحصير خارج الدكان وإلى جواره العميل، وبالرغم من تواضع تلك الحوانيت في هيئتها إلا أن بعضها كان يطوي كنوزا ثمينة، ويغلق الحانوت بباب ذي مصراعين أفقيين يستخدم العلوي منها وقت النهار كمظلة للحانوت والسفلي كنضد للبيع والشراء، وقد يشترك أكثر من تاجر في حانوت صغير: الأول كان يبيع غزل القطن من الفجر حتى الظهر، والثاني يستخدمه كمخبز حتى صلاة العصر، أما الثالث فيبيع فيه الحمص والفول.. وقد لعب التجار الأجانب دوراً مهماً في الحياة التجارية.. ويأتي اليهود في المرتبة الأولى الذين استطاعوا بمهارتهم النفاذ في كل مكان، في أوروبا حيث لم يكن يسمح للعرب دائماً بالدخول وفي العالم الإسلامي حيث لم يكن يلقى التجار الأوروبيون ترحيباً كبيراً، ومن بعد هؤلاء يأتي الفرس وكثير من الأوروبيين وخصوصاً الإيطاليين من البندقية ومن بيزا وصقلية وأيضاً إقليم الأرجون من فرنسا.

ترك المصورون الذين زاروا القاهرة في العصـــور الوســـطى لوحات نادرة مفعمة بالحياة ويصف لنا "فرسكو بالدي" طبيعة سكان القاهرة وأحوالهم بقوله: "إن أكثر من مائة ألف من سكانها كـــانوا ينامون في الحدائق أو على قارعة الطريق، وإن عدداً من الطبـــاخين كانوا يمارسون مهنتهم في الطرقات ليلا ونهاراً ويطبخون في قـــدور بديعة من النحاس المبيض وطعامهم فائق الجودة إلى الحد الذي يفضل الناس معه ألا يطبخوا في منازلهم ويكتفون بشرائه من الأسواق".

ويخبرنا المقريزي بطعام العامة فيقول: "مأكل أهل القـــاهرة الدميس (الفول المدمس) والصير (صـــغار الســـمك) والصـــحناء والبطارخ ولا تصنع النيدة (حلاوة القمح) إلا بها وبغيرها من الديار المصرية وفي القاهرة جوار طباخات، أصل تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين، لهن في الطبخ صناعة عجيبة ورياسة متقدمة.

ويقول الرحالة "سيمون سجولي" عن أهل القاهرة: "إنهم قوم شديدو الحسم أجسامهم تفوق أجسامنا، وكلهم يحـــرص علـــى أن تكون له لحية شديدة طويلة، وبها عدد كبير من المعمرين الذي تعدوا الثمانين، ومن الممتع حقا أن نتأمل جمال هؤلاء وما هم عليـــه مـــن مهابة، وكان رجل الشارع يتسم بالمرح والتسامح ويهـــتم بجـــودة طعامه وحسن شرابه وكان يميل إلى الضحك أما قارس القول فـــلا يغضبه.

وكان الرجال يطلقون اللحى في العــادة، وطــول اللحيــة وشكلها ولونها يحدد مكانة صاحبها؛ فهي طويلة عند أهل الطبقــة الوسطى وقصيرة عند العمال والخدم، أما عادة حلق شعر الرأس تماماً عدا خصلة واحدة (شوشة) فكان رجال الدين والعلم ينظرون إليها بازدراء، وكان لكل رجل ذو مكانة خاتم يحمل اسمه ولقب عائلتــه وعلامة صانع الخاتم وتاريخ صناعته.

وكان على صانعي الأختام الاحتفاظ بسجلات تحفظ طبعات من الأختام التي يصنعونها، وكانت تصنع من الفضة أو اليشــب أو الذهب، أما أختام الحكام فمن العقيق تتخذ أو الزمــرد أو المــاس، وتلك الأختام تقوم مقام التوقيع، وأحيانا تكون تلك الأختام علــى خواتم تلبس في خنصر اليد اليمنى وكان المرء يعنى بحمــل الشــبك (غليون ذو بلسم شديد الطول) معه في كل مكــان، ولــذا كــان الأثرياء يكلفون أحد الخدم بحمله والسير به خلف ســيده، وكــان معظم الرجال يحملون مسابح تتخذ من خشب البقس أو الليمون أو الأبانوس أو خشب الورد أو العنبر أو حجر اليشب أو الصدف.

ولتزويد المدينة والمارة بالماء شيدت العديد من الأسبلة وقــد بناها الأثرياء ليكفروا عن آثامهم في الماضي، وبالسبيل خزان أسفل مستوى الطريق يملأه السقاءون بقربهم، وعلــى واجهــة الســبيل أحواض تظللها سقيفة ويأتي إليها الماء من أنابيب رصاصية ويشرب

الناس منها مباشرة أو يستخدمونها أكواباً توضع على حواف نوافذ السبيل، وعلى نواحي الطرقات توضع أزياء فخارية يشرب منها الناس، كان بالمساجد نافورات للوضوء يمكن أن تستخدم لجلب الماء للشرب.

والسبيل في الأصل كان ملحقا في أحد أركان المسجد للشرب أو في أغلب الأحيان كان يعلوه مكان لتحفيظ الأطفال القرآن يعرف بالكُتَّاب ثم أصبحت هذه الأبنية بعد ذلك منفصلة، ويُعد سبيل والدة عباس (**1867** م) بالصليبة من أفخم الأسبلة التي شيدت في القاهرة، وسبيل خسرو باشا بالنحاسين (**942** م – **1535** م) أنشأه خسرو باشا والي مصر.. وكان أول سبيل أنشئ في العصر العباسي.. له وجهتان بهما زخارف ويعلوه كتاب حليت أعتاب شبابيكه بالرخام.. سقفه منقوش بالذهب والألوان وأرضيته من الرخام.

الفهرس